
تحت
شجرة
الحب
تأليف
جليلة رضا

تحت شجرة الجُمَّيز

تأليف

جليلة رضا

المجلس الأعلى للثقافة

الفصل الأول

قالت أشواق وهى تهم بالجلوس فوق حافة السرير الخشبى :

ــ أما زلت نائمة ياسميره ؟ كم أنت كسول .. الساعة العاشرة .

وتمطت سميره تحت لحافها الساتان الأزرق ورفعت بأصابعها البضة القصيرة خصلة شعر خروبية كانت قد تهدلت فوق جبينها العريض الأبيض ثم أسندت ظهرها الى وسادة مربعة زرقاء وقالت وهى تطوى ساقيها حتى تفسح لابنة عمها :

صحوت مبكرة . ثم أحسست بخمول فعدت الى الفراش ...

وحررت أشواق قدميهامن شبشبها الأحمر وتربعت فوق السرير وهى تقول :

أنا اليوم نشيطة جدا . تصورى . لقد طهوت الطعام ونزلت اليك .

وأطلقت سميره ضحكة كأنها نغم متكسر :

ــ طول عمرك سيدة بيت . يابنت عمى . كان أبى دائما يعيرنى بك قبل أن أتزوج ..

واستثارت أشواق الذكرى فقالت ضاحكة وهى تهز رأسها .

ــ أيام .. أيام حلوه . هل تذكرين ياسميره كيف كان عمى يحب «المحشى» وكنت لا تعرفين كيف تمسكين « المقورة » وكنا أنا وماما نعده لكما ونرسله فى الحلة ..

وداعبتها سميره :

ــ كان ذلك قبل أن يرزقنا الله بداده نعيمة . عندما اشتغلت عندنا أتقنت صنعه أكثر منكما .

واستطردت كأنها تحدث نفسها :

ــ كان هذا منذ زمن طويل .. ياه .. يخيل الى أنك تذكريننى بأشياء مضى عليها ألف عام .

وتمتمت أشواق وهى تحدق بعينها الى أنحاء الحجرة :

ــ عشرون عاما ... كم يخدعنا الزمن ...

وتنهدت سميره :

ــ من يصدق أن ماما ماتت منذ خمس وعشرين سنة ، من يصدق ؟

ورنت الى أشواق بعينين فيهما ذبول وتأثر وهى مضطجعة على الوسادة كالملاك الهابط .

وأمسكت أشواق بيدها فى عزم قائلة :

ــ قومى . قومى مشطى شعرك وتنشطى . سأفتح لك النافذة . ان الخمول يجلب الخمول . هل أفطرت ؟

بالطبع .

وتمشت سميرة فى الحجرة لا تدرى ماذا تفعل ثم تناولت « روبها » الحريرى الأبيض من فوق المشجب ونادت وهى تشرع فى ارتدائه :

داده نعيمه .. داده نعيمه . هاتى الشاى .

قالت أشواق وهى تنظر من النافذة :

ــ ان كان من أجلى فلا داعى ياسميره لأنى شربته قبل أن أنزل اليك ... ما أجمل الجو .. أتعرفين أنى مفتونة بمنظر النيل ؟ مفتونه ...

ومشطت سميره شعرها بسرعه واقتربت من أشواق وهى تمسك بزجاجة عطر صغيرة :

ان منظره جميل فعلا . ولكنه يجلب البعوض ..

وضحكت أشواق ساخرة :

ليس هناك حلاوة بغير نار .. ثم ... كيف تقولين ذلك وقد عشت مايقرب من ثلاثة عشر عاما فى الريف ؟

ـ لم نشعر به قط . كنا نبخر أشجار الحديقة فيختفى كل أثر للبعوض .

ونثرت على صدرها وعنقها قطرات من العطر قائلة وهى تمد اليها يدها بالزجاجة .

خذى ياشوق .

وعطرت أشواق وجهها به ثم تنفست طويلا :

ما أحلاها هذه الرائحة . أحس بنشوة كلما أشمها عندك ... وأسبح فى أحلام جميلة . ماأسمه ؟

ـ عطر النرجس . أحبه كثيرا . طول عمرى أتعطر به . لقد تخصصت فى صنعه وتركيزه . عندنا هناك حوض كامل مزروع بالنرجس .

ـ الاحظ أنك تتعطرين دائما ..

وتنهدت سميره :

عودنى على ذلك المرحوم كامل . كان يحب أن يرانى أمامه كغانية من غانيات لياليه الحمراء .

قالت أشواق وهى تتكىء بمرفقها على النافذة :

ـ رحمه الله • كان يحبك ولكن على طريقته الخاصة • لو أنه عاش الى الآن لتغير مجرى حياتك ياسميره •

ـ ابدا • أو • الى أسوأ •• ايه •• كفانى سبعة أعوام من الشقاء معه •

ـ كلا ، لو أنه عاش الآن لنت نفسه كل ما كان يفعل • ان الرجل كلما كبر مال الى الاستقرار والاتزان •

وهل كان شابا صغيرا ياعزيزتى •• ومع ذلك من قال لك انى الآن غير سعيدة ؟

ـ كل شىء ياشيخة •••

ـ حددى • ان كنت شاطره •••

ـ خذى مثلا • منذ سكنك هنالم أسمعك تعزفين على البيانو مع أنه أول شىء اهتممت بشرائه •

ـ والله يا شوق كدت أنسى العزف منذ مات كامل • لقد اشتريته لهدى •

ـ اذن اعزفى لها •

ـ كلا • ان هدى تحب الأشياء الصاخبة الملموسة • انها فتاة ثائرة متمردة كما ترين ، تميل الى تجربة كل شىء •

غريبة • ولماذا تعلمت العزف عليه قبل زواجك وضحكت سميره •

ـ لأنه الآلة الوحيدة التى سمح لى عمك أن أتعلمها • كنت أحب الكمان • أظنك تذكرين ؟ وكان العزف عليه فى زماننا شيئا غير مستحب بالنسبة للفتاة •

ـ أتريدين أن أبحث لك عن مدرس موسيقى يعلمك العزف عليه ؟

واستنكرت سميرة •

ــ الآن ؟ وفى سنى هــذه ؟

وشردت بأنظارها بعيدا كأنمــا تصغى اليــه .

ــ الكمــان .. انه عالم بعيد أجهله ولكننى أعيش فى أعماقه .. انه يشبه الناى عندنا فى العزبة . كلما أصغيت اليه حمل لى أحلاما كبيرة .. كبيرة كهذه الدنيــا .

وأشارت بذراعيها كأنما تضم الدنيا بهمــا .

وقالت أشواق وهى ترى نعيمة داخلة :

ــ الشاى حضر . داده نعيمه تأخرت فى عمله . أراهن ياداده نعيمه أنك مشغولة بشىء أهم من الشاى .

وضحكت داده نعيمــه

أى والله يا ست شوق . مشغولة بعمل محشى كرنب وقلقاس .

قالت سميرة وهى تجلس جوار أشواق فوق الشيزلونج :

ــ داده نعيمه باحثــه عن المتاعب . تختار الطعام الأصــعب ، والمشــوار الأطــول . لاتعترف بالسن أبدا .

قالت داده نعيمه وهى خارجة :

ــ المهم راحــة البــال والصــحة . وأزوج ابنتى . وبعدهــا لا تهمنى ولا حاجة ...

وتساءلت أشواق هامســة :

ــ ألها ابنة ؟ لم تقــولى لى ...

ـ انهـا تعـنى هـدى

وصبت سميره الشاى فى الفنجانين بينما صاحت أشواق :

ـ لقـد نسيت • ان عطرك وكمانك أخـذانى الى عالم آخر • انسيـانى سبب نزولى اليك الأن •

وتطلعت سميره اليهـا وهى تقلب السكر

ـ خـير ؟

اسمعى يابنت عمى • لقد مر شهران على سكناك القـاهره وأظن انى الآن وقد هيأت لك هذه الشـقة البديعة بكل ما فيهـا ووجدت لهدى المدرسة القريبة والمدرس الخاص • الآن وبعـد أن عثرت لك على هذه السـيارة الفاخرة اللقطة وعلى سـائقها •••

وصاحت سميره ضاحكة :

ـ يعنى الدكتور نجيب لا نصيب له فى هذا الفضل كله ؟

وضحكت أشواق من كل قلبهـا

ابدا وحياتك • لكنى أحببت أن اختصر الطريق • فأنـا وزوجى شـخص واحـد • "

ـ فعلا••• أنتما منسجمان•• ما أحلى انسجام الزوجين •• أكملى ياشوق•

وهيأنا لك كل أسباب السـعادة والاستقرار لنعوضك عن حياة الصـعيد الخشـنة • والآن جاء دورك •

ـ أى دور ؟

ـ جئت أقول لك يجب أن تخرجى من قوقعتك يا سميره • خذى هدى وتنزهى بالسيارة أو على الأقدام • شوفوا الدنيا • افتحى بابك • زورى الناس الطيبين وتزاوروا •••

وتبسمت سميره وهى تهز رأسها موافقة :

فى نيتى أن افعل ذلك • ولكن لم يزرنى من سكان العمارة أحد بعد •

أجابت شوق بسرعة :

ـ كلهم ينتظرون منى كلمة يفهمون منها انك على استعداد لاستقبالهم اننا هنا أسرة واحدة ياسميرة • العمارة صغيرة كما ترين • أربعة أدوار بثمانى شقق • والجميع يتزاورون • باستثناء الشقتين الأرضيتين •••

ـ وما السر فى ذلك ؟

ـ ابدا • الشقة التى تحتك مباشرة يصر صاحب العمارة على أن ـ يسكنها مفروشة للأجانب ولذلك تختلف الوجوه فيها كل فترة أما التى أمامها فيسكنها شاب أعزب محامى •

وضحكت مستطردة :

ـ ربما تحتاجين اليه فى يوم من الأيام من أجل قضية ••

وضربتها سميره على يدها ضاحكة :

ـ أعوذ بالله • فى حياتى لم أدخل محكمة •

ـ اننا على كل حال نزور والدته احيانا لنسأل عن صحتها ولكنها لا تزورنا لأنها مريضة بالقلب ولا تصعد السلم •

وابتسمت سميره •

انت اجتماعية جدا يا أشواق ••

ـ أنا وزوجى نحب الناس • لايستطيع الانسان أنيعيش بدونهم • وسادت فترة صمت وقالت سميره

ـ لماذا جلسنا هنا طول الوقت • قومى نجلس فى شرفة حجرة الجلوس لنحس أننا بين الناس •

قالت سميره وهى تتجه الى اللبلاب الذى كاد يغدو مظلة للشرفة •

ما أسرع ما ينمو اللبلاب • نتذ طال وعرش • كاد يخفى عنا منظر النيل ••

ـ قصيه قليلا •

وصمتت سميره برهة ثم قالت

ـ لست ادرى لماذا لا أحب أن أوقف نمو الزرع • يخيل الى أنه اذا قصصت أوراقه كأنى انتزع منه أرواحا •

وهزت أشواق كتفيها

ـ مازلت خيالية كما عهدتك

ونظرت الى ساعة يدها

ـ ياه •• الثانية عشرة

وأصغت سميره الى الداخل وهى تنظر الى سقف الشقة

ما هذا الطرق الذى فى شقتكم ؟

وضحكت أشواق

ـ انبنت جميده • لابد انها تدق الكفته

ـ ألم تقولى انك طهوت الطعام قبل نزولك الى هنا ؟

— نعم ولكن أحمد صمم أن يأكل كفته بعد عودته من الجامعة ..
وتعهدت جدته أن تصنعها له . ماحيلتي . أنها تدلله أكثر من اللازم . يخيل الى أنها تحبه هو وميمى أكثر مما أحبهما أنا .

وضحكت سميره وهى تجلس الى جوارها على المقعد الخشبى :

— يقولون أن اعز الولد هو ولد الولد

— على كل حال لسنا فى دور التجربة .

وضحكت سميره

— ولا أريد أن أجرب . أن اسم الجدة يورثنى الرعب .

— ألا تريدين أن ترى هدى زوجة ؟

— فى سن الخامسة عشرة ؟ لم تزل هدى طفلة .. ؟

واستطردت متنهدة :

— كان بودى أن تحصل على شهادة عالية وتتوظف لتعتمد على نفسها . اننا فى عهد الثورة . والمستقبل للعلم . ولكنك للأسف أدخلتها مدرسة أجنبية ..

وقالت أشواق تدافع عن تصرفها :

وأيه مدرسة عربية كانت ستقبلها فى هذه السن الكبيرة ؟ ..

انك اضعت مستقبلها فى العزبة وأنت تتولين تعليمها بنفسك . ومع ذلك يكفيها بالاضافة الى مدرستها الأجنبية أن تتلقى اللغة العربية على يد مدرس ماهر كالأستاذ محمود رفعت .

لست أدرى لماذا يضايقنى منظره .. هذا الرجل . فيه من الرزانة أكثر مما يلزم . يخيل الى كلما رأيته داخلا علينا أنه يحمل فوق رأسه أعباء العالم كله ..

ــ ماذا تطلبين من رجــل فقد ابنه غريقا •• ؟

ــ مسكين •• هل كان ابنه شــابا •• ؟

ــ فى الثانية عشرة • حتى ابنته لم تعد قريبة منه • تزوجت طبيبا وسافرت معه منذ عامين الى العريش •• وأصــبح وحيدا كأنه لم يكن أبا • انه كفء جدا ياسميره •

ــ أعلم ذلك • ان هدى تقدمت على يديه فى شهر واحد تقدما واضــحا • ولكن كيف يطيق العيش وحيدا ؟ فهمت منه أنه أرمل •

ــ يعكف على التدريس نهارا وعلى الصلاة والعبادة ليلا •

ــ مسكين • لقد ضيع عمره • ألم يتجاوز الخمسين ؟ انه مخطىء لمــاذا لم يتزوج ؟

ــ لكل انسان ظروفه • ألم تخطئى أنت الأخرى ؟

وخبطت سميره جبينها بيدها صائحة :

ــ ياه • نسيت شراء جرائد الــيوم

قالت أشواق ضاحكة :

ــ كى ترقدى فى الفراش ثم تكملين بقية اليوم فى القراءة • أليس كذلك :

ــ وماذا تريدين منى أن أفعل

ــ كلا ياعزيزتى • ان حياتك مملة • مطالعة ورقاد • الحمد لله أن هدى لم تنشــأ مثلك • •

وأشعلت سميره سيجاره وهى تقــول :

ــ ماذا أصنع يا بنت عمى • ان أبى أورثنى حب القراءة فى العزبة يوم عندى بلا قراءة يــوم ضائع •

قالت أشـواق

ــ غريبـة . هكذا يقـول الاستاذ منير الحلوانى .

ــ من هو ؟

ــ الساكن فوقى فى الدور الرابع فى الشقة المقابلة للأستاذ محمود المدرس.

ــ مدرس هو الآخر ؟

ــ يقول أنه كان محررا ثم استقال ليتفرغ للكتابة . يعنى أديب . يكتب

ــ أى نوع من الكتب ؟

ــ أظنها قصصا . تقول دولت أن قلمه سليط وأسـلوبه ساخر . انهـا مثلك تلتهم الكتب التهاما .

ــ طبيعى مادامت زوجته .

ــ زوجته هاها . ان زوجته لا تفك الخط . انها أديبة فى صنع الحلوى والفطائر وحياكة المـلابس . لا تحسن الحديث ولا تحب الناس .

ــ من هى اذن دولت :

ــ جارتى فى الشقة المقابلة . سيدة سمينة بيضاء لا تعرف كيف تلبس ولكنها شخصية ظريفة جدا يابنت عمى الى أبعد حدود الظرف انها تشيع فى مجلسنا المرح

ــ وزوجها ماذا يصنع ؟

ــ وهزت أشواق رأسها

ــ انها مطلقة . منذ متى ؟ لست أدرى . على كل حـال . هى هنا منذ خمسة أعوام بلا زوج ولا أبناء .

تعيش وحيدة هى الأخرى ؟

ـ كانت أمها تعيش معها وماتت منذ اربعة أعوام . لها شقيقتان متزوجتان بالمنصـورة . انها بلدتهم . أما هى فموظفة فى وزارة التربية والتعليم ...

قالت سميره فى تصميم :

ـ أريد أن أعرفها . وضعها يثير فضولى .

وقالت أشواق مداعبة :

ـ لانها تحب القـراءة مثلك ؟

وتمتمت سميرة شاردة .

ـ ربما .. على كل حال . أحس أنى سأنسجم معها .

ـ حددى ليلة لا ستقبالهم . وكلهم على استعداد .

ـ أى يوم تختارينه لى

ـ هل يوافقك مساء الخميس من كل أسبوع ؟

وهزت سميره كتفيها :

ـ كما تشـائين .

وانحنت أشواق على سـميرة وهى تشـير الى شـابة فى العشرين تقف فى الشرفة المجاورة

ـ انها ايمان . ابنة السيد الهمشرى والسـت حسـنيه . طالبة فى كلية الزراعة . انهم جيرانك فى نفس الـدور .

وضحكت سميره موافقة

ـ رأيتهم كثيرا فى شرفتهم وتبادلنا التحية بالرأس فقط .

همست أشواق

ـ انهم قوم أثرياء من أعيان المنوفية ، سكنوا منذ عام فقط ، كان السيد الهمشرى موظفا كبيرا فى السكة الحديد وأحيل الى المعاش ، ورغم سنه فهو مرح جدا .

ثم التفتت الى فتاة الشرفة صارخة :

ـ ايمان : ايمان : قولى لماما وبابا يتفضلوا بالزيارة هنا الخميس المقبل .

وجاء صوت ايمان رقيقا ناعما مهذبا .

ـ ان شاء الله يا تنت ، يكون لنا الشرف .

الفصل الثانى

كانت سميرة من أسرة كريمة ماتت أمها وهى لم تبلغ الخامسة عشرة •

وكان أبوها رضوان عبد الغنى يشغل منصبا كبيرا اداريا فتنقل بها فى أنحاء القطر ثم استقر أخيرا فى القاهرة بعد احالته على المعاش ••

ولم تكن سميرة الطالبة بالمدرسة الثانوية قد جاوزت تسعة عشر ربيعا عندما طرق باب شقتها بالدقى كامل بك الأهوانى طالبا يدها من أبيها — كان كامل فى الأربعين من عمره يحمل فى قلبه دنيا لا تشبع من ألوان الفساد •

ومع ذلك قبله أبوها بكل فرح مزهوا به مشترطا عليه أن يسجل باسمها قصره الذى يمتلكه بضاحية المعادى •

كان هذا القصر يشبه الفيلا الفخمة تمتد أمامها حديقة غناء كأنها سجادة صلاة خضراء مفروشة تحت قدمى اله ••

فى هذه الفيلا تزوجت سميرة من هذا الزوج العربيد الذى يطربه أن يغدق حنانه على كل حسناء ولا يضن به الا على زوجته •

كان والد كامل من أعيان قرية « ف » بمديرية جرجا بالصعيد يمتلك جنوبها أراضى خصبة وحدائق تعطى أجود الثمر •

وكان الرجل مزواجا فلم يقنع بأم كامل بل تزوج بعدها مرتين • أنجبت له الثانية بنتا وماتت الثالثة وهى لم تزل عروسا فاكتفى بهذه الذرية القليلة وأولى ابنه الوحيد عناية فائقة ودلله تدليلا لا يحد وأوفده الى مدينة سوهاج ليدخل المدرسة • وعندما شب الفتى شاء أن يكمل تعليمه بالقاهرة فأوصى به بعض معارفه ونال كامل شهادة التوجيهية بصعوبة فائقة ثم عاد الى قريته كأنه قاهرى فى منفى • عاد اليها بنظرة جديدة • كل شىء بها غير مستحب ولا مرغوب فيه • يحلم بالعاصمة • العاصمة الكبيرة المتلألئة ويتمنى لو تتاح له الفرصة ليعود اليها •

كان كامل يحس أنه تائه فى عزبة أبيه • يريد أن يفر منها وتمنعه رغبة الوالد الصارمة وبكاء أمه • وفى كل صباح كان يتساءل أما من شىء آخر غير هذه الحياة المملة •• ولم يتأخر الجواب على سؤاله فقد ماتت الأم وانزاح عائق • وعندما تأهب جديا للتمرد على أبيه مات ذلك الأب فجأة تاركا له هذه العزبة الكبيرة وأختا فى عصمة رجل من الأسرة •

فأوكل كامل كل أموره ومشاكله الى عم خليفة ناظر العزبة وكان رجلا أمينا نزيها من أصل طيب • ثم شد رحاله الى العاصمة •••

نزل كامل الأهوانى وقتئذ شهرا كاملا فى فندق كبير من فنـادق القاهرة وبهـرته العاصمة • عاش فيهـا كوارث لا كطالب • فلم يستطع أن يتخلص من سحرها وأراد أن يستقر بها الى آخر عمره •••

وعندما دله أصدقاؤه على فيللا المعادى الفخمة أعجبته من أول نظرة فاشتراها وأثثها وسكنها وواصل بعد ذلك سهراته دون جامح أو رقيب ومع مرور الأعوام• وككل رجل • بدأ يحن الى الزواج • وتلفت حواليه فلم يجد على حـد ظنه من يستطيع أن يثق بها كزوجة • كان يخشى نساء القاهرة •••

وفكر طويلا ثم تذكر •••

لم يدر كيف مرت بخياله ابنـة موظف كبير من موظفى سوهاج حين كان يتردد على هـذه المدينة منـذ ثمانية أعوام ويراها فى عربتها الحنطور ذاهبة الى المدرسة أو راجعة منها ••

كانت سميرة فى ذلك الوقت طفلة فى الثانية عشرة تقريبا ذات شعر خروبى — وعينين عسليتين واسعتين • بيضاء كالقشدة وبرغم صغر سنها كانت فى دور النضج وكان أبوها رجلا محافظا نزيها لا يملك غير مرتبه ويحظى بسمعة طيبة ••

وتذكر كامل أن شيخ البلد فى قريته كان على صلة برضــوان عبد الغنى فأرسل اليه مستفسرا عن مقره الحالى وجاءه الرد بأن الرجل أحيل الى المعــاش وأنه يقيم مــع ابنته الوحيدة فى حى الدقى ... وتردد كامل قليلا . أحيل أبوها الى المعاش ؟ أنه لا يطلب ثراء ولكنه يطلب مركزا لائقا بثروته هو ؟ غير أنه تذكر جمال الطفلة وصباها وسمعة أبيها الناصعة البياض فلم يتردد وخطبها . وانتقلت سميرة من الدقى الى المعادى يصحبها رضــوان عبد الغنى الوالد الطيب ودادة نعيمة الخادمة ...

الفصل الثالث

كان الزواج عند سميرة حربة تتخلص بها من حكم أبيها الصارم . صحيح أنه سيلازمها فى بيت الزوجية . بل ان كامل الأهوانى نفسه رحب كل الترحيب باقامة حميه معه ليخفف عن سميرة الملل .

ولكنه على أى حال لن يستطيع بعد اليوم أن يمنعها من الخروج مع زوجها . هكذا قدرت سميرة . ولكن تقديرها سرعان ما خاب .. وسرعان ما ثبت لها أن زوجها نفسه لن تصلح حاله ولن تخرج معه أبدا . بل ترك على عاتقها هى كل مسئولية تخص البيت محتفظا لنفسه بحق البحث عن أسباب المتعة فى الخارج .

كان كامل قد اعتاد هذه الحياة الماجنة ولم يستطع الزواج أن يجد من مجونه أو من عبثه .

كان يخرج فى الصباح ويعود بعد منتصف الليل .

بل قل أن وجه اليها كلاما أو بادلها حديثا .

وأنها لتذكر أنه فى السنوات السبع التى عاشتها معه حدث مرة واحدة . مرة بعد شهر العسل أن جلس الى جوارها ولم يستطع أن يتجاهل جمال شعرها الخروبى الناعم فقال بصوت فيه رنة الغزل العابر :

ـ شعرك حلو قوى .

عندئذ أحست سميرة بخجل الطفلة وخفضت رأسها مبتسمة .

ومرة أخرى جاءها من الخارج وفى جيب سترته « ايشارب حريمى » بديع ولم تتمالك أن صاحت :

ـ اشتريته لى أنا ؟

لم يكن كامل فى الحقيقة يمنعها من شراء كل ما تحب أن تشتريه • بل كان يشتهى دائما أن يراها متزينة متعطرة • أما أن يشترى هو لها هدية فأمر لم يحدث قط قبل هذا الايشارب ولا بعده • لم يكن يدرك أن الزوجة لا يهمها المال يغدق عليها قدر اهتمامها بمنديل صغير يهدى اليها من يد الزوج ليشعرها أنها محل اهتمامه وتفكيره •

ومضى عامان وحملت سميرة وأجهضت بدون سبب • ولم يحزن كامل أو يهتم • ثم عامان آخران واستقر الحمل فى هذه المرة ••

كانت سميرة طيلة هذه السنوات لا تخرج الا قليلا • كانت تتسلى بالقراءة أوبمؤانسة أبيها أو بالاشراف على داده نعيمة وهى تباشر شئون البيت •ولكن سميرة بعد أن حملت هذه المرة انطوت أكثر من ذى قبل فى الوقت الذى انطلق هو فيه الى كل مكان •

ثم جاءت هدى الى الوجود • ولكن أباها لم يتمتع بها طويلا •

فبعد عامين من ولادتها وفى ليلة من لياليه الساهرة المعربدة سقط على مقعده ميتا بالسكتة القلبية ••• فنقله أصدقاؤه من الكاباريه الى فيلته بالمعادى • وبكته سميرة بحرارة وأسى • وكانت جنازته فخمة هائلة •

ولأول مرة عرف كامل بك الأهوانى كيف يصرف نقوده •••

الفصل الرابع

لم تكن سميرة تتوقع أن تجد كل هذه المتاعب بعد موت زوجهـا من ناحية الميراث ولكن الموقف حتم عليها أن تنهض بمسئولياتها وأن تسـافر بنفسها الى العزبة وهى الفتاة القاهرية التى لا تعرف من أمر الفلاحة شيئا .

وكان أبوها قـد دخل فى دور الشيخوخة وأحاطت به العلل . ولمـا بدأت المشاكل تتكشف أمامهـا وتعرف مدى الديون التى تركها الزوج الراحل لتثقل التركة . صح العزم منها على الاقامة فى أعماق هذه العزبة النائية وطرحت كل فكرة عن عودتها الى القاهرة .

وكان عم خليفة ناظر العزبة انطيب الناظر والكاتب والخولى فى آن واحد . يكتب الحسابات ويراقب الأنفار ويحل مشاكلهم ويراعى خـدم السراية ويشرف بنفسه على بيوت سكان العزبة .

وظل عم خليفـة يباشر مهمته على أحسن وجه برغم اسراف كامل الأهوانى ورهن جزء من أرضه وتبديده كل ما يصل الى يديه .

ولمـا وجـد عم خليفة سيدة القصر وحيدة بغير عائل بدأ يدبر لها أمورها ويعمل على راحتها وباع لها بيت المعادى وسدد بثمنه ديون التركة وبدأت زوجته الطيبة توفر لسميرة أسباب الراحة وترشد داده نعيمة الى كل ما كانت تجهله من عمل فى العزبة وتلاعب الطفلة بنت العامين وتأمر ابنها سامى بمداعبتها وكان يكبر الطفلة بستة أعوام .

ومع مرور الوقت لم تعد سميرة تشعر بالضيق الذى كانت تعانيه فى فيللتها الفخمة بالمعادى بل أصبحت أقل كآبة وخفت تلك المرارة التى كانت تعكر عليها صفو حياتها الزوجية عندما كانت تترامى الى أذنيها الشائعات عن سلوك زوجها .

وعندما بلغت هدى الخامسة من عمرها بدأت سميرة تلقنها مبادىء القراءة والكتابة .

وتوالت الأعوام وهدى تكبر ولم يكن يجرى فى عروقها ذلك الدم الهادىء الرزين دم أمها سميرة . وانما لاح عليها من مطالع الطفولة أنها ستغذو كأبيها ثائرة متمردة .

وكانت سميرة تلاحظ تلك الأعراض فى حزن وتشعر أنها تكاد تنتقل من حياة زوجية عسيرة الى أمومة أشد عسرا .. كانت هدى شيطانة صغيرة تصلح أن تكون ولدا لا بنتا ... كما كان يقول جدها رضوان . لم يكن لها من عمل طيلة اليوم غير الجرى فى الحقول وصيد العصافير بالنبلة والانقضاض على الضفادع وركوب حمارتها الصغيرة « عزيزة » .

وكثيرا ما كانت أمها تصرخ فى وجهها أثناء الدرس .

ـــ يا هدى اعقلى شويه . اثبتى يا بنتى .

ولكن هدى ما تكاد تنتهى من دروسها حتى تنطلق كالصاروخ الى الفضاء الواسع تزاول هواياتها العنيفة فى غير مبالاة .

وذات صباح لاحظ عم خليفة أن سميرة تجلس مع هدى فى الحديقة أثناء الدرس وكان خارجا من بيته المقابل للسراية فاتجه اليهما وقال بعد أن ألقى التحية :

ـــ العفو يا ست هانم . أنا ابنى يقدر يساعد الست هدى فى التعليم . هو طالع الأول فى فصله .

ـــ وصاحت سميرة

ـــ والله فكره يا عم خليفة . أنا ناسيه سامى ابنك . لكن هو عنده وقت ؟ ده بيروح كل يوم سوهاج لمدرسته .

ـــ وماله ياست هانم . ما هو بيرجع العصر .

وبدأت هدى تتعلم على يد سـامى كلما عاد من البندر ولكنها كانت تنظر الى القـراءة والكتابة نظـرها الى شىء هامد ميت يذكرها بعجزها عن اشـباع أحاسيسها الطافرة بين أم خجون وجد مريض .

ولم تكن سميرة تتوانى عن التماس وسائل الترفيه عن هدى وكثيرا ما كان يصحبهما سامى يوم الجمعة فيركبون « الكاريتا » الصغيرة ذات الجواد الأبيض الأصيل يسوقها درويش ابن الغفير حتى بلدة أخميم الواقعة على الضفة الأخرى من سوهاج ثم يعبرون النهر بالمعدية ويتمشون على شارع الكورنيش فى سوهاج ويتطلعون الى بيوتهـا النظيفة وينزلون ضـيوفا على بعض أقارب المرحوم كامل ويأتى المساء فيدخلون السينما ثم يعودون الى العزبة .

وكثيرا ما كانت سميرة تسير مع ابنتها بين الحقول ممتطيتين الركائب تذرعان الطريق العمومى أو توغلان فى السكة الزراعية الى كوبرى الترعة حيث تستريحان تحت شجرة الجميز العتيقة فوق الحشائش الخضراء ..

وكثيرا أيضا ما كانتا تبلغان القرية المجاورة حيث تقيم الست خديجة عمة هدى مع زوجها وأبنائها لقضـاء اليوم معهم ولزيارة عمـدة القرية الشيخ على صالح وزوجته .

ولم يكن يخص على سميرة سلامها وصفوها الا ما كانت تلاحظه على نفسها اذ ترى هدى أمامها تكبر من غير أن تشعر هى بتلك الفرحة العارمة التى تحس بها الأم نحو وحيدتها التى تتحول الى صديقة ورفيقة . كل شىء كان يفرق بين الاثنين . الذوق والشعور والطبائع .

كانت سـميرة مرهفة الخيال . تحب الهدوء وتمضى أوقاتها مستلقية فوق مقعد طويل تقرأ ما يصل الى يديها من كتب وجرائد من سوهاج .

وكانت هدى خارج السرايى دائما فاذا أقبل المساء عادت بشعر منقوش وثياب ممزقة حاملة معها رائحة الأرض . مصحوبة فى كثير من الأحيان بسامى خليفة . فتصب الأم جام غضبها على الابنة ويخفض الفتى رأسه فى حياء وينصرف .

كم من مرة ارتست هدى بجنون على صدر أمهاتم أوسعتها تقبيلا بجرأة وعنف فتصيح سميرة وهى تصلح من ردائها المشدود : ما هذه الحركات ياهدى ؛ صحيح أنك تعيشين طول النهار فى الغيط مع البهائم .

وتمتلىء عينا هدى بالدموع وتحمر وجنتاها فتحتضنها سميرة فى حب وحنان .

وتوالت الأيام وشيئا فشيئا بدأت هدى تعرض عن الخروج المستمر وعكفت على الرسم . كانت شغوفة به وكانت سميرة تساعدها وتوجهها بصبر وحماس فصارت عيناها تلتقطان كل ماتريانه فتنقله يدها على الورق وتحدد الأبعاد وتجد السرور فى محاكاة الأصل ..

ولم يعد أحـــد يراها كالقطة تجرى وتثب فى حوارى العزبة وأزقتها وتلعب الاستغماية والحجلة والبلى ...

ولحت ســميرة أن الصغيرة تعتنى بهندامها وبنظافة يديها وأظافرها وبدأت مشيتها تأخذ طريقها الى التأنى كما بدأ النضج يأخــذ طريقه الى كيانها كله بدنا وقامة ..

وتأملتها سميرة فى دهش وذهول . هذه الصبية التى لم تكد تكمل ثلاثة عشر ربيعا . هذه الفراشة الطائرة التى خرجت من الشرنقة . هل هى هدى ؟

واعترفت الأم لنفسها بأن هذه الصغيرة قد تغيرت تغيرا كاملا . وحينئذ فقط أحست احساسا غريبا ... احساس أم لم تتمتع بحياتها بعد . احساس أم تتنكر لأعوامها الطويلة المــاضية . ترى ابنتها أمامها زهرة تتفتح .

وفجأة اشتد المرض على السيد رضوان عبد الغنى فأصيب بالشلل وسافرت به ابنته مع عم خليفة الى القاهرة • وأدخلته المستشفى ونزلت هى عند ابنة عمها أشواق بحى المنيل •

ولم يمض أسبوع واحد حتى مات الأب وعادت سميرة الى العزبة عادت من جديد الى الهدوء والأرض الطيبة •••

وبدأت سميرة تلاحظ أن هدى تزداد مع الأيام كآبة وحزنا وقالت لها ذات يوم :

ـ اخرجى ياهدى • الشمس دافئة والجو جميل •

ولم تجب هدى وهى جالسة تصغى الى الراديو فى شرود وسألتها امها •

ـ أين سامى ؟ انا لاأراه منذ أيام •

أجابت هدى فى حزن :

ـ سامى سافر مصر • ليدخل الجامعة

ـ ولكنه لم يسلم على قبل سفره •

بدأت سميرة تفكر فى شبابها الهارب ومستقبلها الغامض • فما الذى أثار فيها هذا التفكير • هل هى الوحدة الكاملة بعد موت أبيها ••• لا تدرى أخذت تمضى الساعات الطويلة تسرح فى لاشىء وتحس باختناق وقلق ••

وبدأت القاهرة تمر أمامها فى شريط طويل

لقد شاهدت منها الكثير من وراء زجاج نافذة التاكسى وهى فى طريقها الى المستشفى لتزور أباها أو راجعة منها الى بيت أشواق • رأت دنيا غريبة لم تحس بها من قبل دنيا ساحرة حرمت العمر منها • وخرجت سميرة من كل تلك الأخيلة شبه مريضة • مستلقية على فراشها أياما عديدة •

وكانت هدى تدخل حجرة أمها على أطراف أصابعها متسائلة عن صحتها فتجيبها أمها فى اقتضاب :

ـ بخير ..

وماتت أم سامى بعد مرض قصير وانشغلت العزبة كلها بهذه المأساة واضطر سامى الى الحضور اسبوعا واحدا فى العزبة ... وبكتها هدى بحرقة ولهفة وواست عمها خليفة بقدر ما كانت تستطيع .

ومضى عامان من أسوأ الأعوام التى قضتها سميرة فى هذه الأرض النائية وتملكتها رغبة جارفة فى التزين فخلعت عنها ثياب الحداد على أبيها ولبست أزياء فاتحة وأكماما قصيرة لا لشىء الا لاسعاد نفسها ومنذ ذلك الوقت اختمرت فى رأسها فكرة العودة الى القاهرة والاقامة فيها ثم بدأت تمهد للفكرة عند هدى وتغريها بها .

ثم كتبت سميرة الى أشواق ابنة عمها تعرض عليها رغبتها وجاءها رد أشواق بوجود شقة خالية فى نفس المبنى الذى تسكنه وترحب بابنة عمها أصدق ترحيب.

وعبثا حاول عم خليفة أن يقنعها بالعدول فلم يفلح وقنع بالدعاء الى الله أن يحفظهما من كل سوء ووعدهما بالسفر اليهما كل شهرين ليسلمها الايراد ويتفقد شئونهما .

وهكذا سافرت سميرة وهدى الى القاهرة .

الفصل الخامس

ـ ما هى أخبار القضية يا أستاذ مدحت ؟

ـ تأجلت يا سميرة هانم شهرين • وأقول لك مرة أخرى لا تقلقى وتحركت سميرة بعصبية على المقعد الجلدى المريح •

ـ لست قلقة ولكنى أنتظر الحكم حتى أرسو على بر وأستريح يا أستاذ •

ـ لا تخافى • سيكون الحكم فى صالحنا ان شاء الله • ان السيارة لم تكن سليمة حين اشتريتها من ذلك النصاب البائع • وسيكون لك حق استرداد ثمنها • هذا أمر بديهى •

ثم أرسل مدحت ضحكة عالية وهو يلتفت الى فتاة أنيقة خمرية اللون جالسة على مقعد من الخشب فى ركن من حجرة المكتب تتصفح مجلة الجيل •

ـ تعالى يا عايدة سلمى على الست سميرة هانم جارتنا فى العمارة •

والتفت الى سميرة :

ـ عايده • أختى •

وتبسمت عايده وهى تخطو خطوات بطيئة رشيقة وتعدل من بلوزتها الضيقة الحمراء وتشد جوبها الكوردونيه الأسود •

ـ أهلا سميرة هانم • لست غريبة عنى • حدثنى عنك مدحت وكثيرا ما اشتقت الى رؤيتك •

أشكرك يا عايده هانم •

وضغط مدحت على جرس فوق مكتبه وهب واقفا وهو يفتح باب الحجرة ويطل برأسه الى الخارج •

ــ أظن أننا شطبنا ياعوض • أليس كذلك •

ورد الفراش :

ــ أيوه يا بيه • مفيش زباين خلاص •

ــ طيب اقفل ورانا •

والتفت الى سميرة •

ــ هل تسمحين بتوصيلك يا سميرة هانم ؟ عربتى بالباب •

وترددت سميرة ثم قالت :

ــ كلا • شكرا • ربما تكونان عازمين على قضاء السهرة فى مكان آخر •

ــ أبدا بالمرة • تفضلى • تفضلى

وأشار اليهـا أن تتقدمه ووقعت عينـاه بنظرة اعجاب على قوامهـا اللدن وساقيها البديعتين • وقالت عايدة وهى تهبط الدرج :

ــ وصلنى أولا يامدحت لأن الوقت تأخر وأشرف اليوم ليس على مايرام••

وصاح مدحت :

ــ أشرف • أشرف هل أنت الأم الوحيـدة فى الدنيا ؟ •• وأشرف الولد الوحيد •• أشرف معه دادته • ليس من المعقول أن أدعك ــ ماما عملت لك اليوم صينية سبوسة مخصوص •

ــ آه صحيح •• ولكنى أستسمحك يا مدحت لأن حمـاتى هى الأخرى عندها صداع • وأنا تأخرت ••

ــ أمرك ياستى • أوصلك وأمرى لله ولو أن المسافة بعيدة ••

وفرك مدحت أذن عايدة مداعبا وهو يفتح باب السيارة الخلفى لسميرة •

وأخذت عايدة مكانها فى المقعد الأمامى وهى تقول :

ــ أنا غلطانة • هى الحلمية بعيدة ؟ لا عليك سنشترى عربة قريبا ونصبح زيك من أصحاب السيارات ••

وضحك مدحت من صميم قلبه وهو يدير الدركسيون قائلا •

ــ احذرى أن تقعى فى مثل غلطة سميرة هانم فى عربتها •

ــ حقا انها لمشكلة •

وساد سكون • وقطعت السيارة شارع سليمان باشا ثم انطلقت ببطء وصعوبة فى طريق ٢٦ يوليو المزدحم بالمارة والعربات متجهة نحو العتبة الخضراء وقالت عايدة :

ــ أوه •• ألا يكف هـذا الشارع عن الضجيج والزحمة ولو لحظة •• الساعة الان العاشرة مساء وما زال الناس فى حيوية الصباح • خصوصا النساء• كأن نساء القاهرة كلها هنا •

ومد مدحت ذراعه حاضنا اخته قائلا :

ــ وانت أولهن

وقهقهت عايدة وهى ترفع ذراع أخيها عن كتفها :

ــ حاسب يا مدحت • احذر ان تسوق العربة بيدك اليسرى • ثم •• أنا لا أكذب يا أخى • أنظر الى هؤلاء النساء فى أبهى حللهن وأجاب مدحت فى رقة وشاعرية :

ــ الأضواء تجذب الأضواء •

وقطعت السيارة شارع محمد على واقتربت من جامع قايسون وتنبهت سميرة على العبارة اللطيفة وهى قابعـة فى ركنها الخلفى وترسمت أن يكون مدحت من هواة الأداب • وأثارت جملته أشجانها وأحست أنها تعيش فى ظلام دامس رغم كل ما صنعته لتهيىء لنفسها أسباب الراحة • انها محرومة من الأضواء وهى بهذا ترى الكون أمامها ليلا بلا انتهاء • وبدأت تسأل نفسها من أين هى آتية والى أين هى ذاهبة ؟ ولم تعيش ؟

ان كل شىء الآن يموج حياة • أما هى • فهى الصوت المنكمش ها هى القافلة أمامها تسـير • أما هى فهى لا تملك الا أن تنبح من الداخل • وسمعت مدحت يهمس لعايدة •

ــ سميرة هانم نامت على ما أظن ؟

وأجابت عايدة هامسة هى الأخرى •

ــ مسكينة • ست طيبة •

طيبة •• ما أفظع هـذه الكلمة • انها كالخنجر يطعن قلب سـميرة بعنف وقسوة • اذن فالناس ينظرون اليها نظرة اشفاق •

وفجأة توقفت السيارة أمام بيت قديم فى أحد شوارع الحلمية الهادئة ونزلت عايدة ثم مدت يدها من النافذة الخلفية وهى تسلم •

ــ أتمنى أن تزورينى الآن يا سميرة هانم • نحن فى الطابق الأول •••

ومدت سميرة يدها مسلمة :

ــ فى فرصة تانية ان شاء الله • مع السلامة ياعايدة هانم •

وقال مدحت :

ــ قبلة عريضة منى لأشرف • وتحية المساء لأبيه • لا تنسى •

واختفت عايدة واثبة ضاحكة داخل الباب .. وفتح مدحت باب السيارة الخلفي :

ـ تفضلي يا سـميرة هانم ـ فانتقلت الى المقعد الأمامي وانطلقت العربة نحو المنيل .

وساد سكون طويل قطعه مدحت في منتصف الطريق :

ـ هل كنت نائمة حقا ؟ أظن أنكما لا تسهران طويلا ؟

وقالت سميرة :

ـ بالعكس هدى ابنتي تسهر لأنهـا تستذكر دروسها . أما أنا فأقرأ .

والتفت اليها من خلال ظلام السيارة ورائحة عطرها تملأ أنفاسه وقال :

ـ هذه الصبية ابنتك ؟ كنت أظنها أختك الصغرى . انى أراها في الصباح وهي ذاهبة الى المدرسة .

وأحست بارتياح لكلامه وكأنما هي تعرف هـذا الرجل منذ زمن بعيـد وتمتمت :

ـ فعلا هدى طويلة .

وضحك وهو يقول :

ـ بلغني أن شقتك أصبحت محطة استقبال أغلب الجيران ... الأسـتاذ منير يمدحك كثيرا . لا بد أنك محدثة ماهرة .

وتبسمت سميرة في خجل :

ـ لا أظن . غير انى بدأت أحب الناس . عشت طويلا بدونهم . ان العزلة ظلام . ولم يجب مدحت بل أخرج علبة سجائره من جيبه وقال وهو يقدمها اليها:

ـ أظن أنك تدخنين .. ؟

ومدت سميرة أصابعها الوردية وهى تجذب سيجارة •

ـ أحيانا أدخن بنهم وأحيانا أنسى أنى أدخن •

وحاول أن يشعل الولاعة فقالت :

ـ لا تتعب نفسك • اعطنيها فقط • شكرا •

وجذب مدحت نفسا طويلا من سيجارته وقال يردد عبارتها كأنما يكمل فكرة •

ـ العزلة ظلام •

ثم استطرد كأنما يحدث نفسه

ـ ومع ذلك • لولا الظلمة ما كان النور •

ثم التفت اليها وسألها :

ـ القاهرة أعجبتك يا سميرة هانم •• ؟

ـ وهل هذه هى القاهرة ؟ لقد تغيرت تماما ••

ـ منذ متى تركتها •• ؟

ـ على ما أظن • كان ذلك منذ ثلاثة عشر عاما • ولكننى نزلت بها أسبوعا منذ عامين ونصف عندما مات أبى • لم أر يومها شيئا • أما الآن فقد رأيت العجب • انها فوق العقل :

وساد صمت آخر وأنفاس الربيع الساحرة تمر من خلال النافذة ـ والليل الغارق فى الصمت يستنشق أحلام النيل الناعم •• والنسيم الرقيق يبعث فى جسد سميره ارتعاشة خفيفة •

وخيل اليها ان الحياة الأبدية تطوى معها المسافات وتتدفق سيولا عطرية فى شرايينها النابضة •

هاهى ذى الدنيا مرة أخرى تعرق حزنها ومتاعبها فى جدائل الليل العميق •

ها هو ذا الربيع يتقدم تحت غصون الأشجار عاريا ساذجا يسابق خطو السيارة ••

الحوانيت تغلق •• ومن رصيف لآخر يتبادل الناس تحية المساء •

ان روحها كالقطيفة المخملية أمام هذه الأحاسيس والرؤى • تخاف عليها الانكماش •• ما افظع الخوف والقلق •••

وقال مدحت ••

ــ الجو جميل • نحن فى مايو • بعكس شهر يونيو • أنه أحر شهور الصيف عندنا فى القاهرة •

ــ ليس أشد حرا من الصعيد •

ــ حقا • أمضيت عمرا هناك • كيف استطعت بالله • أنت مخطئة ياسميرة هانم •

قالت وهى تهز رأسها معترفة :

ــ أعرف ذلك • عرفته أخيرا • ان أخطاءنا تحمل عقابها كأجسامنا التى تحمل ظلها •

ــ اتمنى لك السعادة • انت تستحقينها • لقد وصلنا •

قالت وهى تخرج من السيارة :

ألف شكر يا أستاذ مدحت • سلم على الوالدة لعلكم تشرفونا بالزيارة •

وتبسم محييا :

ــ بكل سرور

ــ غدا الخميس . ليلة الاستقبال . أطمع فى رؤيتكم

وأجاب وهو يهز رأسه من نافذة السيارة عائدا بها الى الجراج :

ــ ان شاء الله . ليلة سـعيدة .

الفصل السادس

كان توفيق أفندى حسنين والد مدحت موظفا بوزارة المالية بقسم الأموال المقررة رجلا متدينا يقولون ان جده الأكبر كان وليا من أولياء الله الصالحين دفن فى احدى قرى الصعيد عندما سافر اليها للتجارة وتزوج توفيق أفندى ابنة عمه منيرة وهى فتاة عرفت بين لداتها بالحياء والاحتشام والخلق ورزق منها بمدحت وعايدة فرباهما أحسن تربية وشبا على طاعته والامتثال لأمره .

ولا يذكر مدحت أنه ناقش أباه فى رأى غير مرتين فى حياته .

الأولى عندما أكملت أخته السادسة عشرة وأراد توفيق أفندى أن تلزم البيت وتمتنع عن المدرسة فحاول مدحت بكل احترام أن يقنع أباه بالعدول عن رأيه وتشبث أبوه بالرأى ولكن المشكلة حلت نفسها اذ تقدم لطلب يد عايده شاب مهذب يشغل وظيفة محاسب وتزوجها .

والمرة الثانية عندما أراد توفيق أفندى أن يدخل مدحت كلية الحقوق بعد أن نال شهادة التوجيهية ليراه على حد قوله قاضيا يحكم بالعدل فى بلد لا تعرف العدالة .

ولم يستطع مدحت أن يقنع أباه بأنه ما خلق ليكون ذلك القاضى وانما خلق ليكون أديبا . اذ كان حلمه الذهبى أن يصير يوما كاتبا لهؤلاء الكتاب الذين يقرأ لهم ويمضى لياليه غارقا فى قصصهم الساحرة التى تستغرق ميوله وتخلب لبه .

ولا سبيل الى تحقيق هذه الأمنية الا بالتحاقه بكلية الآداب .. ولكن هذه المحاولة مع أبيه لم يكتب لها التوفيق ولم تحل نفسها بنفسها كمشكلة أخته فنزل على رغبة أبيه والتحق بالحقوق على كره منه .

وان مدحت ليذكر حتى فى الخامسة عشرة من عمره كيف كانت هذه الأسرة الصغيرة تعيش فى أمن واستقرار فى أحد أزقة بولاق فى بيت كبير قديم هو الميراث

الوحيد الذى تركه جده لأبيه ... وفى ذلك البيت المحافظ على التقاليد والحريص على شعائر الدين شب مدحت .. وترعرع .

وكان يطيب له أن يطل من أحد نوافذ البيت على مسجد يقع أمامه مباشرة . فيرى ليلة الجمعة من كل أسبوع منظرا يستوقفه ويثير تفكيره . منظر صفوف متراصة من الخلق يقفون فى فناء المسجد وهم يهتزون ويتمايلون يمينا ، ويسارا يرددون اسما من أسماء الله على صوت منشد جميل الصوت .

فكان يسأل أباه عنهم فيجيبه فى ايجاز :

ــ انهم يذكرون الله .

وظهرت على البيت بوادر التهدم فباعه توفيق أفندى بأرخص ثمن وانتقل بهم الى مسكن فى حى من أحياء الجيزة المتواضعة .. حتى اذا التحق مدحت بالجامعة تحاشى تكاليف مواصلاته .

وفى تلك الشقة تزوجت عايدة وانتقلت مع زوجها الى شقة فى بيت تملكه أسرته بالحلمية الجديدة ...

وواظب مدحت على استذكار دروسه ودخل الجامعة وواصل نجاحه بتفوق ترعاه دعوات أبويه . ولم يكن ينغص حياته غير مرض أمه الطويل الذى لا يكاد يتركها أسبوعا حتى يعود اليها شهورا . وفى تلك الشقة أيضا واجه مدحت أول تجربة له فى الحب . وكانت ابنة الجيران . كان حبا عنيفا حقا . لكنه استطاع برغم ذلك العنف وبحكم تربيته المتزمته أن يكتمه عن أبويه . وانتهى كما ينتهى كل حب فاشل وتزوجت الحبيبة .

ذات عام سافر توفيق أفندى وزوجته الى الحجاز لتأدية فريضة الحج وعاد الى بيته صحيحا معافى وما كاد ينتهى من استقبال المهنئين حتى داهمته ذبحة صدرية طاغية فأسلم الروح وهو مازال يحمل فى ثناياه رائحة الأراضى المقدسة .

ولم تبكه الست منيرة كما تفعل النساء عادة . فقد عادت من الحجاز مفعمة القلب بالايمان . ذاكرة أن الله الذى حجت الى بيتـه وطوفت بكعبتـه وأدت له الشعائر والمناسـك هو الذى استرد وديعته .. وحظرت على ولديه الصراخ الذى يلجأ اليـه الناس لأنه كفر بالله .

ولكن الابتسامة منذ ذلك اليوم لم تعرف الطريق الى شفتيها ...

وتخرج مدحت ورشح نفسه للنيابة بحكم تفوقه ولكن السلك القضائى كان مخصصا لأبناء الذوات فى ذلك العهد . فلم يوفق وأضطر الى الاشتغال بالمحاماه شاكرا فضل الله أن أباه لم يعش ليرى أمنيته الوحيدة فى الحياة وهى تنهار .

وبدأ مدحت يكافح ويجد ويخلص لعمله لكى ييسر لأمه العيش الهين فادخر من دخله مبلغا استأجر به مكتبا وأثثه فى بساطة وذوق واستطاع أن يشترى بعد ذلك سيارة تساعده على التنقل بين دور المحاكم وأن يستأجر له ولأمه أخيرا هذه الشقة الجميلة فى المنيل الواقعة على ضفاف النيل الخالد ..

الفصل السابع

كانوا ثمانية وتاسعهم سميرة فى حجرة جلوسها الذهبية أمام الشرفة المطلة على النيـل •

وكان الوقت ليلة من ليالى الاستقبال التى أعدتها سميرة كل مساء خميس •

وكان النسيم دافئا يملأ أرجاء الحجرة ويختلط كالسحاب مع دخان السجائر •

وقال السيد الهمشرى :

ـ لقد حرمنا أنا وزوجتى حسنية من زيارتك الخميس المـاضى • ياسميرة هانم • كنا فى حفل زفاف ابن صديق لنا •

والتفت السيد الهمشرى الى الحاضرين وهو يفتح عينيه الضيقتين :

ـ تصوروا • العريس شاب مهندس فى الثلاثين من العمر • له مسـتقبل زاهر ولم يتزوج قبلا ومع ذلك وقع اختياره على سيدة مطلقة فى مثل سنه •

ومط الأستاذ منير شفتيه وهز رأسه

ـ للنـاس فيما يعشقون مذاهب

وقال الأستاذ محمود رفعت المدرس موجها حديثه للسيد الهمشرى

ـ ما هو وجه العجب ؟ شىء طبيعى • ان المرأة الناضجة تقدر المسئولية •

ونفخ السيد الهمشرى فم سيجارته ثم علق به سيجارة وأشـعلها وقال فى ابتسامة هازئة ملتفتا الى الأستاذ محمود :

ـ أنا لا أوافقك ياأستاذ محمود على ماتقول • أنا رجل بلغت الستين وأحلت على المعاش ولولا خوفى من حسنية لتزوجت عذراء فى الثامنة عشرة •

وضحكت حسنية ساخرة ملتفتة الى ابنتهـا

ــ يعنى فى مثل سن ايمان ابنتك ؟ بل أصغر •••

وضحك الهمشرى قائلا :

ــ ياليت •

قالت حسنية وهى تهز يدها مؤكدة :

ــ أنا شخصيا أسمح لك بالزواج الآن من أخرى • لتكن لى ضرة • على الأقل تريحنى من نكدك ليـلة بعد أخرى •

ــ وضحك مقهقهـا :

ــ بل ليلتين بعد أخرى • أتسمحين ؟

ــ أسمح بعشرة • بشهر •

قالتها بانفعال وضحك السيد الهمشرى وهو ينظر الى سميرة •

ــ حسنية غارت ياسميرة هانم •

وربت على كتف زوجته بحنان قائلا •

ــ لا تخافى • لقد ذهب الشباب • احمدى الله وضحك الجميع •••

الفصل الثامن

قال وهو يصعد سلم الهرم الأكبر

ـ سميرة هانم . أعطنى يدك

وتمتمت مداعبة :

ـ لا داعى . انها فترة ظلام يعقبها الضــوء

وأطلقت دولت وراءها ضحكة سخرية :

ـ أنت متفائلة اليــوم ياسميرة . بشرى خير .

وهزت سميرة كتفيهــا :

لست متفائلة . ولكنى أكثر ايمانا .

ـ بماذا ؟

واستردت سميره أنفاسها قليلا ثم أجابت :

ـ بأشياء كثيرة . ليس هذا وقتها

وصاح مدحت وهو يسبقهمــا :

ـ استريحا لحظة لقد تعبتمــا

وضحكت دولت :

ـ بل أنت الذى تعبت . أين الشباب يأستاذ ؟

وقف الثلاثة وتطلعوا فى انبهار وسكون ...

وقالت دولت عاتبة :

ـ منظر بديع • بديع جدا • كنت ستحر ميننا منه ياست سميرة •

ـ بالعكس كنت متحمسة للمجىء من أجل هدى • انها لم تر الهرم حتى الآن • أما أنا فقد رأيته •

وحدقت سميرة فى الفضـاء ثم قالت :

ـ لست أدرى لمـاذا رفضت هدى المجىء فى اللحظة الأخيرة كنا قد تأهبنا ولبسنا • ما الذى دعاها الى العدول عن الخروج ؟

قالت دولت :

ـ ربما ودت أن ترافقها ايمان فى هذه الرحلة •

قالت سميرة بانفعال ظاهر :

وهل ايمان فى مثل سنها حتى تتخذها صديقة ؟

قالت دولت :

ـ على كل حال هدى عنيدة • الفتاة فى سنها متعبة • لاتهتمى ياسميرة ••• وغير مدحت الحديث

ـ كم مرة زرت الهرم يادولت هانم ؟

قالت كعادتها مداعبـة :

ـ مرة واحدة وحياتك مع المضروب على عينه فى شهر العسل •

وألقى مدحت ضحكة عالية تبدد صداها فى الفضاء وقال :

ـ أما أنا فهـذه ثالث مرة • وفى كل مرة كنت أعتزم أن أعيد الكـرة ثم لاتساعدنى الظروف •

وقالت سميرة مداعبة :

ـ معنى ذلك أنك لست وفيا لعهودك .

ودافع عن نفسه :

لو لم تجيئا اليوم لجئت وحدى . كان عندي تصميم أكيد . وأشار بيده في دهشة :

ما أجمل النيل . كأنه نائم يتمطى ....

وأشارت دولت بيدها

ـ والزوارق والأشرعة .. والمآذن . نكاد نرى القاهرة كلها ...

وأصغت سميرة

ـ ما هذه الأصداء ؟ أتسمعينها يادولت ؟

وقال مدحت :

انها تنهدات القاهرة ..

ـ وابتسمت سميرة بمرارة وتطلعت الى السماء وقد تمددت سحابة طويلة على الأفق ومن خلال السحابة انشقت الشمس وبعثت فى كل مكان أشعة وردية .

ثم عادت وخفضت رأسها نحو الأرض . أشباح صغيرة سوداء كالنمل تدب على الأرض . وأحست بانقباض غريب وهى معلقة فوق هذه القمة المضاءة الضائعة من الفراغ الهائل وقالت :

ـ غريب .. يخيل الى أنه هكذا يرى الله الناس ويسمعهم .

ورفعت دولت يدها محتجة باسمة

كنت تتولين من عنيهة انك أكبر ايماننا اليوم • عليــك الآن أن تســتغفرى ياعزيزتى •

وضحك مدحت وهو يقول لسميرة •

— أنت اليوم مرهقة الاحساس أكثر من اللازم • انك تعلمين جيدا أن الله فى قلوبنا •• انظرا •• انظرا

وأشار بيده الى ناحية المنيل :

— ها هنا عمارتنا • أغلب الظن فى هذه الناحية •

وأحست سميرة براحة وحنين الى الأرض وابتسمت لأول مرة وهى تقول :

— هذه المدينة الكبيرة • اننى أستطيع أن أشير بأصبعى الآن الى مكان معين كما أشار الأستاذ مدحت وأقول • هنا بيتى•• هنا مكان راحتى •• وقاطعتها دولت مكملــة لها :

هنا ابنتى هدى •• هنا داده نعيمه

كان يعلم جيدا أنها جميلة • كان يراها أحيانا بعينى نحات عثر على أجمــل تمثال ولكنه هنا وفوق الهرم • ولا شىء يعترضهما غير الهواء النقى الطازج • لم يعد يرى كل هذا الجمال المــادى بقدر ما كان يحس بشفافية روحها المعذبة •

وهبت نسمات شــديدة ورفعت سميرة « ايشــاربها » الملتف حول عنقهــا وعقدته حول رأسها قائلة :

— اشتد الهواء • ألا نهبط ••

وفى السيارة التفتت دولت وراءها الى سميرة •

ــ متى تنتهى قضية سيارتك يا سميرة ؟ حتى تشترى واحدة أخرى• وأجاب مدحت :

ــ تأجلت مرة أخرى ولكن الحكم فى صالحها • على كل حال ان سيارتى تحت أمركما فى أية لحظة •

وتمتمت سيرة شاكرة • وساد سكون والسيارة تذرع شوارع القاهرة •

وقالت دولت :

ــ سميرة • أراهن أنك تفكرين فى عدول هدى عن المجىء معنا •

انك تعقدين الأمور • تقفين حائرة أمام أتفه المشاكل •

وهزت كتفيها مكملة •

ــ أنا لا أعير مشاكلى أى اهتمام ••

وتنهدت سميرة •

ــ ليتنى أستطيع • انى أحسدك •

قال مدحت فى ارادة •

ــ أما أنا فاذا اعترضت طريقى المشاكل أعالجها فورا وببساطة وهدوء •

الفصل التاسع

حين أصبح مدحت متعودا على زيارة سـميرة أكثر من مرة فى الأسبوع • بدا جذابا طيبا مرحا أمام الجميع ومع ذلك فان هدى بدت غاضبة نافره : ووداده نعيمه حذرة حريصة •

وكان مدحت يحاول عند صعوده أن يتحاشى مقابلة أحد على الدرج ومع ذلك بدأت الأقاويل بلا شكوك فقد استطاعت سـميرة ـ واستطاع مدحت أن يقنعا السكان بأن هناك أكثر من قضية تخص العزبة كلفت سميرة بها مدحت واستلزم الأمر أن يناقشاها عدة مرات •

وكانت هدى تسخر من زياراته المتكررة فى أول الأمر ثم تحولت سخريتها الى كآبة واستسلام وبدت عيناها المزداتتان بأهداب ظليلة وكأنهما مثقلتان •

وكانت سميرة تدعونا الى الجلوس معهما فى حجرة الجلوس فكانت تمكث صامته فى ركن ناء تطرز مفرشا صغيرا قرب النافذة المطلة على الشرفة وهى تصغى بغير اهتمام الى الحديث الدائر بين أمها وبين مدحت • أو تستذكر دروسها فى هدوء صامت فاذا وجهت اليها أمها الحديث اكتفت بلا أو نعم ثم عادت الى عملها وذات مساء كانت هدى عاكفة على الكتابة فى حجرة المكتب عندما اقتربت منها سميرة •

ـ ماذا تفعلين ؟

ومدت هدى يدها تخفى ورقة منقوشة أمامها قائلة •

ـ أتسلى بالرسم •

وشدت سـميرة الورقة من تحت يدها وارتعشـت • فقد رأت فيها ملامح زوجها الراحل •

كانت هدى اذن تقلد رسم الصورة الكبيرة المعلقة هناك فى العزبة •

صورة أبيها ••

ونظرت سميرة الى ابنتها نظرة حادة ولكن هدى تحدت نظراتها وأشاحت برأسها فى صمت :

وأثار هذا الحادث حزن سميرة فترة من الزمن .

وتساءلت . ماذا تقصد هذه الفتاة الطائشة ؟ ولماذا هذه الذكرى المفاجئة. أترى قد جرحتها زيارات مدحت ؟ ومع ذلك فان تصرفاتى لا غبار عليها .

قد أكون مخطئة فى السماح له بهذه الزيارات المتكررة .

ولكن .. ومهما يكن الأمر . لماذا تتدخل ابنتى فى شئونى ؟

طفلة فى الخامسة عشرة تفتح عينيها فى وتسمح لنفسها أن ترى مالا يجب أن تراه .. ألا تشعر هدى أنى مكثت السنين الطوال سجينة قرية .. منفية مع البهائم؟ لأصلح ما أفسده أبوها . ذلك الأب الذى ترسم صورته ألم أضح أنا بسببه ؟ أليس لى حق الحياة ؟

ولكننى أصبحت أخشى نظراتها . انهما تقرآن أفكارى ..

وواظب مدحت على الحضور .

وكانت سميرة تستقبله بنشوة فرحة .

يتكلمان عن الماضى والحاضر . أما المستقبل فقد كان محظورا عليهما كأنهما لن يجتازاه يوما .

وشيئا فشيئا لم تعد سميرة تتبين موقفها نحوه ..

كان ينتابها أحيانا شعور بالخوف كأنها تسير وسط حريق هائل . ثم تنتبه الى نفسها وتنظر الى مدحت فتراه شابا حييا عاقلا فتسترد ثقتها فيه .

وكانت أحيانا تكتشف بدهشة ولكن بغير استنكار أن حياتها أصبحت متصلة بحياته .

وفى بعض الأحايين تضبط نفسها كاللصـــة متلبسة بتقليد حركاته ثم تعود لتقول لنفسها :

مستحيل أن يكون بيننا شيء . انى أكبره بعشرة أعوام. انه وجد فى عاطفتى صورة الأمومة التى يحبها . أحس معى بتجاوب فى الفهم . انه يتذوق الأدب وأنا أتذوقه .. هذا كل ما فى الأمر .

وهكذا تتابعت زيارات مدحت وفى كل مرة وبغير أن تشـــعر ســـميرة كان الحب . يأخذ لونا جديد ألبسته اياه عذوبة شاب وحرمان امرأة ناضجة .. نفخا فيه من روحهما .

الفصل العاشر

رقدت سميرة فى فراشها . لم يرها أحد ولم تحب هى أن ترى أحدا .

منذ تلك الليلة العاصفة التى تأكدت فيها من حب مدحت لها .

لقد خرجت من صراعها الطويل وشكها فى عاطفته منتصرة وبغتة سمعت صوتا طرد كل هذه الآمال والتخيلات ..

كلمة واحدة . كلمة قوية . كلمة عادلة . كلمة ساحرة .

رنت بسمعها وهزتها .. ماما ... ماما .

ولكن لم نسبق الحوادث ؟

فى تلك الليلة كانت سميرة جالسة وحدها تقرأ فوق مقعد من مقاعد الأنتريه الحمراء فى صالة الشقة عندما دق مدحت جرس الباب وفتحت له فى حرج .

— لست غريبا يا أستاذ مدحت . أتحب أن تجلس هنا أم فى حجرة الجلوس.

وضحك جالسا وهو يرمق الكتاب الموضوع الى جوارها على حافة المقعد .

— هنا بالطبع . كنت تقطعين الوقت فى القراءة . أليس كذلك ؟

قالت مبتسمة :

— القصة الجديدة للأستاذ منير . ألم يحدثنا عنها الخميس المـاضى ؟

وأخرج مدحت علبة سجائره وأشعل سيجارتين .

— آه أذكر . الخائن . يهدى اليك نسخة لم يهدها الى بعد .

سيجارة يا سميرة هانم .. ؟

ومد يده ولم تنتبه بل ضحكت قائمة ••

لا تغضب • انها أول نسخة وصـلته من المطبعة • عفوا ذكرتنى بالقهوة • انتظر قليلا سأصنعها لك • داده نعيمه فى الخارج • ورفع عينيه اليها وهى واقفـة معترضا •

ـ الى أين ؟ كلا استريحى بربك • أنا لا أحب أن أتعبك سأنتظر حتى تأتى داده نعيمة •

ـ انها لن تأتى الآن • لقد صحبت هدى الى السينما •

قال فى رنة الذى أبهجه الخبر •

آه •

ثم استطرد •

ـ أليسـت عطلة هدى الجمعـة والأحد لمـاذا اختارت اليوم لتذهب الى السـينما • ؟

قالت سميرة وهى تجلس :

ـ لأن سامى حضر اليوم وأصر على أن تشاهد فيلما جديدا •

قال مدحت ضاحكا :

ـ انهمـا منسجمان كثيرا •

قالت :

ـ لأنهما تربيا معا وشبا فوق أرض واحدة • انه يذكرها بأيام الطفولة •

ومد مدحت يده ثانية •

ـ السيجارة ياسميرة هانم •

ـ آه نسـيت •

وأخذت نفسا وهى تنظر الى الدخان العابث فى أنحاء الصالة .

ـ لاحظت أنك تدخنين كثيرا هذه الأيام

وقطبت جبينها قائلة :

ـ ليتنى ماتعلمت التدخين .

وتلاقت عيناهما لأول مرة فارتسم فى عينيها قلق

ولاح فى عينيه عمق وغموض .

ثم حولت وجهها عنه وسادهما سكون لايخلو من قلق .

وقطع مدحت الصمت بابتسامة

ـ فيم تفكرين ؟

ـ فى لاشىء .

قالت ذلك وهى تخشى أن تكون هذه العبارة الصغيرة قد تركت لعينيها أن تعبرا عن أشياء أخرى ثم استطردت :

ـ أشعر بتوعك هذه الأيام . لست أدرى لماذا ؟

وبدا كأن هناك خاطرا تملكه فقال :

ـ انك غير سعيدة . هذا ما يبدو لى . ان السعادة تجلب الصحة .

قالت بعد تفكير :

ـ كلا . ان فى سنى هذه لابد للمرء أن يتعود انحراف الصحة أحيانا .

قال مترددا فى خجل :

ـ أبدا . لاتقولى ذلك . كل ما هنالك أن شيئا ينقصك وتساءلت فى دهشة

ـ أى شىء .. ؟

وفى قوة من لم أطراف شجاعته قال :

ــ الحب ، لم ترفضينه ؟ كم هو جميل أن نحب وأن نحب ..

وأحست بكيانها كله يهتز ثم لم تلبث أن استردت رباطة جأشها وغمغمت .

ــ الحب ؟ ليس لى الحق فيه . ان الحب تبادل ، أخذ وعطـاء .. هل من العدل أن أعطى قلبا محطما لآخذ قلبا فتيا ؟

أن أقطف زهرة لم تغرسـها يدى ؟ ان أخلق سـعادة لا أعتـرف أنا نفسى بوجودها ؟ حتى ... لو استطعت العثور على هذه السـعادة سأظل دائما أخشى على ضياعهـا ..

وبدأ أنه لم يقتنع

وواصلت هى حديثهـا

ــ كلا . لقد رسمت طريق حياتى . انها انتهت

وران سـكون رهيب

وقالت فى نفسها . كل ما قلته الآن سـيبعث فى قلبه اليأس .. وتعلقت بهذه الفكرة .. ونظرت اليه من تحت أهدابها الطويلة فوجدته حزينـا ووثب قلبهـا شفقة عليه . نعم . ان المرأة لا تضعف أبدا الا تحت تأثير فضيلةما . انها لاتستطيع أن تنكر كم تصنع بها أحزان الرجل . ورجل فى عنفوان قوته .

ان عذوبة هذه اللحظة لها مفعول السحر فى مخيلتها المرهفة ..

وتساءل مدحت فى نفسه . هل هى تتجاهل حبى أم تجهل فعلا أنى أحبهـا ؟ ونظر اليها . كانت عيناها العسليتان الوسعتان تنمان عن البراءة . وانهارت أحلامه ثم عاد فانحنى باللائمة على نفسه لأنه لم يصنع أى شىء يجعلها تفهم حبه . حبه الطاغى لاشىء سوى عدة زيارات وكلمات عابرة عن الحب والشعر والأدب ...

وأحسس بارتباك ، كيف لا يقوى على الاعتراف بحبه لها ، كيف ؟ ودقت ساعة الصالة العاشرة ومد يده ليتناول الكتاب وبدا كأنه منهمك فى القراءة .

— ربيع وخريف ، عنوان جميل

ولم تجب ، وأشار الى صفحة قد ثنت طرفها

— كدت تنتهين من قراءته .

وأمسك ببقية الصفحات

— لم يبق غير الربع تقريبا ، هل أعجبك .. ؟

— كل ما يكتبه هذا المؤلف يعجبنى

— أتحبين أن اكمل لك بعض الصفحات وأسبلت عينيها .

— لا مانع

وقـــرأ

« وسمعا معا صوت النسيم القوى البارد وهو يصـفع زجاج نافذة قريبة ويعصر جدائل الأشجار المصفرة .. ومن الغصون المتخبطة — صدرت أنات تشبه حناجر البحار ..

وارتعشت بثينة قائلة

— أشعر بلفحة برد ، جاء الخريف

ثم استطردت فى حزن

— وغدا يأتى الشتاء وتبكى الريح عند نهاية الطريق ، ولن نستطيع أن نلتقى وسوف تأتى الليالى الطويلة الكئيبة لتحل محل الاصباحات المشمسة المنيرة .

وقال عادل معترضـــا :

ـ ما هذه الافكار السوداء ؟ أنت تظلمين الشتاء • انه جميل وانه أخصب فصل • ستكونين حرة • بعيدة عن الناس والمجاملات السخيفة • لن يكون معك فى بيتك غير عطر الأشياء المفضلة يهيم خلال ستائرك نحو قلبك الدافىء •••

قالت بثينة وهى تنظر الى زهور الحديقة •••

ـ وهل نسيت آلاف الفراش الذى سيختنق فى الوحل ؟

وماذا يهم ؟ لديك الجمال بأكمله • ستوقدين المدفأة فتتفجر الحياة وتتدفق مشتعلة فى شرايينك •

وهل نسيت الصـــدأ ؟ وصرير الأبواب المبللة ؟ واختفاء طنين النحل المغنى المبعثر فوق الأزهار ؟ وذبول الورد ؟

وضـــحك عادل قائـــلا :

ـ ولكنك ستفسحين ركنا لأحلامك قرب الشموع • وسوف تدق ســـاعة الحائط لتعلنك بالوقت خارقة قلب السكون •••

ولأول مرة سألته بثينه :

ـ وأنت • ماذا ستصنع فى الشـــتاء ؟

وهز كتفيه

ـ ماذا سأصنع ؟ كما أصنع كل عام • سأمزق قيودى السخيفة •• وأقف أمام مرآة نفسى أتزين تأهبـــا للربيع المقبل •••• »

وتوقف مدحت عن القراءة ونظر الى سميرة

أما سميرة فقد رنت كلمة الربيع فى سمعها غريبة مريبة من شفتى مدحت . وتوالت خيالات عديدة ... ايمان الهمشرى ومدحت . الربيع والربيع ... دولت المرحة . خريف ضاحك .. ضائعة سعيدة بضياعها .... وهناك .. نظرت اليهـ عينان ... عينان حزينتان .. بريئتان . ضيبتان . هما عينا الأستاذ محمود رفعت المدرس ... وتنبهت على صوت مدحت :

ـ شردت ياسـميرة هانم .

وتمتمـت

ـ أسلوبه حـالم . حـالم .

وأحست باختناق وهمت بالوقوف .

ـ ألا نجلس فى الشرفة . منظر النيل بديع فى اللـيل .

وتوجهت الى الشرفة وهو يتبعهـا .

واتكأ على حافة الشرفة . وظلا واقفين .. بعيدين كل البعد الواحـد عن الآخر . لم تكن تنظر اليه لكى تكون أكثر احساسا به فى الظلمة ..

وقال آخيرا وكأن صوته يأتى من أعماق دنيا ثانية .

ـ سميرة

وانتفضت فى فرح وحزن . سمعت اسمها مجردا من كل لقب .

واسـتطرد

ـ انى أرى روحينا تسبحان هائمتين فوق هذا الموج الحالم . وهبطت نجمة وصـاحت سميرة .

ـ انظر . هاهى ذى نجمة تسقط . أية رغبة تهوى بها من مكانهـا العالى الى الأرض ؟

وأجاب بحزن

ـ الرغبة فى الحياة

ـ ولكنهـا ستتحطم

واستدار راجعـا فى يأس

ـ سميرة • للمرة الأخيرة • أنا الآخر أتحطم • مســاء الخير ـ وقبل أن تفيق من دهشتها كان مدحت قد فتح الباب بنفسه وخرج ••

ودخلت ســميره حجرة نومها وأغلقت الباب والنافذة كانت تلك هى عادتها كلما هزها شـعور قوى •

كانت تحب أن تظل فى ظلام دامس لتسبر غور نفسها ويخيل اليها أن أية كلمة • أى قبس من ضياء سيبدو كائنا عملاقا يجتاح أجواء الحجرة الصامتة مبددا سكونها •

كانت هناك قطرات لامعة كاللآلىء تتصاعد من أعماقها كأنشودة مسحورة • لم تنم • ولمــاذا تنام ؟ كل ما كانت تظنه مستحيلا قد تحقق •• أنها ليست كهلة كما تخيلت • انها لم تزل تمتلك ثروة من الجمال •

ألم تدر رأس شاب ساحر كمدحت ؟ ألم تثر شجونه وأحزانه ؟

واكتشفت سميرة أنها كالمحارب الأعزل عثر على سلاحه فى اللحظة الأخيرة • آمنت بقوة جمالها وسـحرها • تخيلت مدحت محطما كما قال •••• هو الآن فى حجرته يفكر فيها ويبكى •• لابد أنه يبكى •• وارتعشت • أخذها الزهو فأضاءت نور الحجرة ولأول مرة منذ خمسة عشر عاما وقفت أمام المرآة تتأمل ملامح جسدها غير خائفة ولا وجلة ••

وكانت حقا جميلة • وطاف خيال ايمان أمامها ثانية ولكن فى تحد • انهـا أجمل منها بكثير • انها أجمل من هذه العذراء الطائشـة • الضامرة النحيلة •• وتساءلت • من منا السارقة ؟ من منا التافهة ؟ أنا أم هى ؟ انها تبوح لى بكل حبها

وشعورها لمدحت . انها تثق بى ثقة عمياء لعلمها بأنى لا يمكن أن أكون خطرا عليها ان هذه الثقة وجدها اهانة كبيرة لى . ان مدحت يحبنى ... وتمددت فى فراشها تفكر ...

كانت تجتر من أعماقها أفكارها البالية القديمة لتتركها تفر من أمامها كما تفر مجرمة من وجه العدالـة ...

نسيت كل شيء .. الا أنها يجب أن تعيش .. أن تحب

وفتحت هدى باب الشقة الخارجى بمفتاحها الخاص ودخلت حجرة أمها بهدوء . وارتعشت سميرة على صوت هادىء جميل

ــ ماما .. ماما . ألا تزالين مستيقظة ؟

ورأت سميره ابنتها أمامها . رأتها أمامها . جميلة . ندية . بريئة . ونظرت الى رأسها الشامخ فى كبرياء والى عينيها الصافيتين كماء البحيرة وجبينها الناصع وتأملتها تنحنى وتقبلها على خدها قبلة المساء .

وبدت لها هدى شبحا . ففتحت عينيها وأغلقتهما

خافت من ابنتها . خافت منها . ثم أخفت وجهها بيديها . نعم ... خشيت أن تكون هدى قد عرفتها على حقيقتها وقرأت ما يجول بفكرها ....

وهمست :

ــ انى على وشك النوم . أطفئى . أطفئى النور ياهدى .

وفى الصباح قامت سميرة من فراشها منهكة

كانت قد فهمت جيدا أنها ستعيش رهينة شبابها الضائع .

قامت بعد صراع مع نفسها . ومشت فى الحجرة . . .

وأحست بقدميها تغوصان فى حفرة من الاسفنج .

وعندما نظرت فى المرآة . رأت ذلك الوجه الثائر بالأمس وجها ناطقا بالطيبة والتسامح والاستسلام . وان لم يخل من الكآبة ... كان وجه أم ....

الفصل الحادى عشر

انقطع مدحت عن زيارته لسميرة وأحست هى خلال غيابه أنها كالضـائعة وبدأت هدى تقترب من أمها وتضاحكها وتقضى معظم أوقاتها معها .. ومن حين الى حين تتطلع الى وجهها الذابل فى دهشة .

وحين كانت عيناها تلتقيان بعينى أمها كانت هـذه تحس بالخجل وتخفض رأسها مرتبكة أمام السؤال الصامت الحائر على شفتى هدى .

وعندما مر الأسبوع الأول دون أن تسمع طرقات مدحت على الباب أو تسمع صوته فى المسرة بدأت تشعر براحة يشوبها قلق .

عرفت أنه يئس منهـا .

وأحبت أخيرا أن تنفذ الموقف أمام ابنتها ولكن ذكاءها لم يسعفها .

كانت قد بدأت تخشى تلك الصبية تلك التى تجاوزت السادسة عشرة . فان الأعوام التى قضتها هدى فى عزلة عن الناس . وسط الطبيعة الهادئة قد شحذت ذكاءها وقوت من صلابتها وعزيمتها .

ومع أن هدى لم تكن قد لفظت اسم مدحت طيلة هذا الأسبوع .

ومع أنها كانت تتجنب ملاحظة ارتباك أمها غير أن سميرة كانت واثقة أن هدى تفكر فى سبب انقطاعـه .

وقالت لهـا سميرة ذات يوم .

ـ أظن أن المحامى زعلان منا . لأننا لم نسأل عن سبب انقطاعه .

ولم تجب هدى وكان صمتها دليلا كافيا على أنها تفكر فى الأمر وبدأت سميرة تنتقل الى حالة أخرى . كانت تفتقد نفسها لطول ما أحاطت هذه النفس بالقيود والحدود .. أصبحت تخاف أن تحل هذه الاصفاد .

كانت أصداء كثيرة تجلجل فى أعماقها .

لقد طحنها القلق وعذبها الصراع . لقد خطا مدحت الخطوة الأولى وتركها لتخطو الثانية . ولن تخطوها أبدا .. كان سرا تخجل أن تمضى به الى أقرب الناس اليهـا . ولكن الافضاء يريح .

وفى هذه الليلة بالذات . ليلة الاستقبال . كانت تتوقع زيارته ولكنهلم يأت .

وعندما خلت الى نفسها . لم تنم . رقدت تلف رأسها الأعاصير كغابة كثيفة مفروشة بالأوراق الميتة . وشعرت بتثاقل كأنما أذرع الليل الطويلة امتدت تحت غطائها كاللص وسرقت كل مابها من قوة .

وعنـدما أشرق الفجر وانحنى على روحها الكئيبة أحست أنهـا كالمسافر التعب . كانت مرهقة حزينة .

كانت على ثقة من أنها أحبت بعد فوات الوقت . وياله من حب .. لقـد هبطت ثقيلة فوق أرض الحقيقة كالطائر الجريح الهابط من الفضاء .

بلغت أبواب الجنة عند المساء . لمحت ضـوء السعادة عند الوداع .. وفى السـاعة الحادية عشرة صباحا عندما دق جرس باب شقتها الأستاذ محمود رفعت المدرس حسب ميعاد الدرس الخاص لهدى . كانت سميرة فى أشد حالات الانهيار بعد ليلة من سهاد وأرق .... كان فى عينيها انتفاخ وفى رأسها ألم .

قال وهو يعبث بحبات مسبحته :

ــ صباح الخير ياست سميرة . كيف الصحة اليوم ؟

قالت باقتضـــاب

ــ الحمد للـه .

وتلفت حولـــــه

ـ أين عصـــفورتى الصغـــيرة ؟

واعتذرت سميرة •

ـ والله أنا المذنبة • أرسلتها لقضاء أشياء ضرورية للبيت •

لمـــاذا لم ترسلى نعيمه ؟

ـ لأنهـــا مشغولة فى المطبخ • اليوم موعد حضــــور عم خليفة من العزبة
وانتظرت قليلا ثم أكملت :

ـ ستأتى هـــدى • لن تتأخر

قال بسماحة وبشر :

ـ لقد أتاحت لى هدى فرصة وجودى معك على انفراد • لنتحدث قليلا •
أراك كئيبة هذه الأيام الأخيرة ياست سميرة • لم تشاركينا الحديث ليلة أمس •
أنت متعبة •

ـ كـــلا

ـ لابد أن هناك ما يتعبك •

قالت فى تنهـــد

ـ لكـــل انسان مايتعبه ياأستاذ محمود •

ونظر اليهـــا مليا فى حنان كبير ثم قال وقـــد استجمع أطراف جرأة ليست
من صـــفاته :

ـ ست سميرة • أنت وحيدة فى الحياة • الا من ابنة فى دور الطفولة تقريبا•
خذينى أخا لك • أخا عطوفا • أريد أن أخفف عنك بعض الشىء أنا وحيد •

وصادفت الكلمات فى نفسها راحة ورضا وراحت تفكر فى كل كلمة قالها حتى تندت عيناها بالدمـوع •

كانت تعلم أنه • يتمنى سعادتها من أعماق قلبه • اذن هى ليست وحيدة • ان هنالك قلبا يتسع لآلامهـا •

وجاءها صوته يشق الصمت مرة أخرى وأكثر قوة

— انك تنكرين على اللـه ماوهبك من نعمائه • لمـاذا لاتنظرين دائمـا الى السـماء ؟

وقالت سميرة فى أسى كأنما اعتزمت أن تنفض عن قلبها بعض ما يقلقه •

— لأن الأقـدار تأبى الا أن تهبط بقلبى الى الأض فلا أستطيع أن أرفع عينى الى السماء •• ياأستاذ محمود •

ونظر اليها فى ارتباك وهو يشعر أن الفرصـة تواتيه ولا ينبغى أن تفلـت

— ألا يوجد حـل لآلامك • ياست سميرة ؟ ألا يوجد منقذ ؟

وتنهدت سميرة وهى تنظر من خلال زجاج الشرفة الى صفحة السماء •

— فى ذلك البحر الصاخب المسمى بالحياة • كنت قد وجدت صخرة عالية أريح عليها قدمى ولكن الاعصار ألقى بى بعيدا عنهافوقفت وحيدة أمام العواصف• هذه هى الحقيقة المرة ياأستاذ محمود •

قال فى عـزم

— ست سميرة • ان هناك من الواجبات ما يملأ علينا فراغ الحياة • بل هى كثيرا ما تملؤنا بالبهجة والأمل •

واعترضت ثائرة

ـ أى واجب ؟ وأين القوة على أدائه ؟

ـ كل حياتنا واجبات . لأنفسنا .. وللغير

وتبسمت حزينة

ـ صدقنى ياأستاذ محمود . لاشىء من لاشىء . بل لاشىء من أجل لاشىء هذا هو قانون الحياة . لكن .. ماذا تريد على التحديد أن تقول ؟ بماذا تنصح ؟

وصمتت برهة ثم أشارت بأصبعها من خلال زجاج النافذة الى الشجرة المطلة عليها الواقعة على شاطىء النيل .

ـ ثم قالت : هل تريد لهذه الشجرة أن تخضر أوراقها بلا ماء ؟ هذا شأن الروح هى الأخرى .. أنك تفهمنى ...

وخيل للأستاذ محمود أن الوقت قد حان لتفجير القنبلة فاعتدل فى جلسته كمن اعتزم أمرا .

ـ ست سيرة .. أنت تحتاجين فعلا الى رجل رزين

وسألته بدورها فى دهشة

أى رجل ؟

وأحس كأن صاعقة نزلت عليه فاستجمع شوارده ونظر اليها فى ضراعة وكبرياء وأجاب فى غير تردد :

ـ رجل رزين . ياست سميرة . رجل يناسبك سنا . يشاركك الحياة ـ ويدرا عنك العواصف .. وأنا وأنا ..

وفهمت سميرة مايدور بخلده فصمتت ثم قالت فى مرارة :

ــ لا يا أستاذ محمود . أنا لا أصلح لأحد . أنا آسفة . أنا نادمة . لقد تصرفت بحماقة .

ــ انك تهولين الأمر . سيدة فى الأربعين ؟ أنت أصلح زوجة .

ــ أنا حزينة . ان الماضى ينظر الى بأسف وعتاب وشك . انه يهمس لى فات الوقت . كنت شبابك فأضعتنى . أضعتنى وسط قطيع من الماشية . أنا نادمة .

وفجأة وجد الأستاذ محمود نفسه يرفع عينيه اليها ليقول :

ــ أنت عاشقة ياسميره هانم .

وارتجفت سميرة كأن السماء هوت فوق رأسها . اذن هو يعرف .

ــ أنت مخطىء كل ما فى الأمر أنى فتحت لك قلبى وكان مغلقا . أردت أن أتكلم .. أن أشكو .. أن أبكى .. أن أسخط . أنا ساخطة .

ومرة أخرى وبقوة لا يعرف مأتاها وجد نفسه يقول فى اصرار وكأن الكلمات تملى عليه :

ــ أنت تحبين يا سميرة هانم .

وانهارت قوى سميرة . فأجهشت بالبكاء وغمغمت كأنها أمام منوم .

ــ أجل . انى يائسة . كنت أظن أن الحرب من الخارج . ولكنى تبينت أنها تندلع فى أعماقى . بدأت أفهم نفسى . أن كبريائى مطعونة .

قال الأستاذ محمود فى ألم ومرارة .

ــ ست سميرة . أنا لا أعارضك مطلقا . كلنا لاحظنا أى طريق تسيرين فيه . كل الجيران لاحظوا ذلك ... لست أعترض ... ولكنى أرى سيدة

محترمة عاشت طول عمرها بعيدة عن الأخطاء وأرى شـابا دون سنها بكثير ••• وكل ما أقوله أن هذا العمل غير لائق بك • قد أكون جريئا ولكنى صديق وصريح•

وتساءلت :

ـ لست أدرى لمـاذا هو غير لائق بى • نحن منسجمان فكريا •• أرأيت يا أستاذ محمود •• كم أنا تافهة ••• ؟

فأجـاب

ـ أبدا •• بل عنيدة •

ـ هـذا صحيح ••

ونهض الأستاذ محمود وخرج وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة وظلت سميرة وحدها لا تتحرك • كم من الوقت • بضع دقائق ؟ ساعة ؟ لم تدر • ولكنها تنبهت على صوت ضحكة صاخبة •• وباب يخبط •• وكانت هدى قد رجعت •••

الفصل الثـانى عشر

كانت سميرة قد اقتربت من أول الشارع الذى تسكن فيه عندما أنهمر المطر غزيرا وعصفت الريح باردة لافحـة • فأسرعت فى السير ولأول مرة منذ سكنها بالعمارة • دقت سميرة باب شقة مدحت وكان هو ينتظرها فقال بهدوء واحترام :

ــ تفضلى • أهلا وسهلا •

وسألته وهى واقفة فى الصالة :

ــ أين والدتك ؟

فأجابها فى ثبات :

ــ لم أجدها فى البيت عند رجوعى • لابد أنهـا أخذت تاكسى وذهبت الى عايدة لأن أشرف مريض •••

وقطبت سميرة جبينها وقالت :

ــ كان يجب أن تخبرنى تليفونيا من المكتب •

فأجاب ببساطة :

ــ لم أكن أعلم •

ثم قال مترددا :

ــ ليس من اللائق وقوفك هكذا • أليس من الأفضل أن تستريحى فى حجرة المكتب حتى أعد المبلغ لك •

قالت :

ــ انى فى عجلة •

وهز مدحت كتفيه غير مبال ودخل حجرة مكتبه وعاد بعد هنيهة يحمل حفنة من الأوراق المـالية قدمها اليها وهو يقول :

ــ هذه هى النقود • ألف جنيه • ثمن سيارتك • أرجو أن أكون قد أديت واجبى •

وأخجلتها جفوتها التى قابلها هو بهذه الرقة ثم جاءتها فكرة الأتعاب وحارت فى الطريقة التى تقدمها بها • قالت فى خجل :

ــ أريد أن أشكرك •

قال مبتسما :

ــ لم أفعل شيئا يستحق الشكر •

ــ بل أريد أن أشكرك ماديا • معذرة •

وحدق فيها فى حزن ومرارة ثم هز رأسه •

ــ بل قولى أنك تريدين الاجهاز على • ألم يكفك جرح واحد ؟ لقد أخذت جزائى •

طأطأت رأسها ووضعت النقود فى محفظتها ولم تجب •• كانت ترتعش بردا وكان معطفها مبللا واستدارت لتخرج ولكنها سمعت صوت عم عبده البواب وهو ينزل السلم ويتحدث مع أحد معارفه النوبيين • وخشيت أن يكون عالمـا بغياب أم مدحت فيراها خارجة من عنده ويظن بها السوء وترددت وعاود مدحت الأمل فقـال :

ــ استريحى قليلا •• وسبقها الى حجرة مكتبه فتبعته صامتة وسمعته يقول :

ــ حجرة الجلوس عندنا هى حجرة المكتب • شقتنا صغيرة • ثلاث غرف فقط •

وراح يضع فيشة المدفأة فى البريزة ويعدل المقعد أمامها وتمتعت وهى تجلس :

ـ شقتكم جميلة ولكنها رطوبة . لأنها أرضية .

وأشار الى بقية الحجرات كأنما يقدم اليها بعض الأصدقاء .

ـ هذه هى حجرة ماما . وهذه حجرتى . وهذه حجرة المكتب والجلوس .

وأدار المدفأة نحوها ثم قال :

ـ دفئى يديك .

ونظر اليها مليا فرآها مبتلة . تكاد تسيطر على جسمها رعدة كاملة .

قال فى فزع :

ـ انك مبللة . لن تستطيعى أن تمكثى هكـذا . سأحضر لك روب ماما لتخلعى عنك هذا المعطف .

قالت معترضة .

ـ كلا . كلا . سأصعد ..

ولكنه لم ينتظر ودخل الحجرة المجاورة ثم دلف منها الى حجرته وفتح دولابه ثم عاد يحمل فى يده روبا .

ـ اخلعى معطفك وضعى هذا الروب على كتفيك ريثمـا أصنع لك فنجانا من الشـاى .

وفتحت سميرة فمها . كانت تريد أن تقول .. « كلا » .. ولكن الكلمة ماتت على شفتيها وكان هو قد تركها الى المطبخ . وعجبت . ما الذى يجعلها تنصاع له وما الذى يرغمها على الخضوع لهذه الارادة على هذا النحو ؟

انها فى بيت رجل أعزب . لابد أن تخرج من هـذه الورطة . لكنها راحت تصغى الى قطرات المطر وهى ترتطم بأسفلت الشارع وتغمغم . فى كل مكان صوت ماء يتدفق . وأحست ببرودة المعطف الذى ترتديه فخلعته ونشرته فوق مقعد آخر وهى تهون على نفسها الأمر . ماذا هنـاك من خطورة . هل هى فتـاة مراهقة أو صغيرة طائشة . ان مدحت شاب عاقل . وشدت روبه الصوفى الرمادى ووضعته على كتفيهـا وربطت الحزام حول خصرها ومدت يديهـا الى المدفأة . وأحست بالدفء يسرى فى أوصالها فاطمأنت وبدأت تتطلع الى أرجاء الحجرة . فلاحظت لأول مرة أنها مفروشة فرشا أنيقا وبسيطا يدل على سلامة الذوق .

سجادة بيج ناصعة وكنبتان عريضتان من القطيفة الحمراء ومقعدان من نفس اللون . مكتب من الخشب الزان عليه أوراق مبعثرة . ومكتبة عريضة زجاجية مليئة بالكتب . كتب القانون المجلدة يتخللها كتب أدبية كثيرة . وفى الوسط طاولة صغيرة رخامية عليها كتاب مقلوب مغلف وسلسلة مفاتيح وعلبة سجاير . ونجفة حمراء تتوسط سقف الحجرة ذات ثلاثة قلوب هنا حياة مدحت الخاصة معروضة أمامها فى فوضى محببة الى العين . رائحة خفيفة غامضة تملأ المكان . دنيـا من السحر تدل على وجـود شاب أعزب . اغراء فاتن قوى ينبعث منها . أ وهكذا تحس سميرة ... فى حياتها لم تهزمها بهـذة القوة رائحة الرجال وغلى قلبهـا بالمشاعر.وامتلأ فكرها بشحنة من الخواطر والرؤى المبهمة وامتلأ ضخبا وضجيجا.

وعاد مدحت وتأملته وهو يضع صينية الشاى على المنضـدة .. كان يبدو شاحبا فأحست سميرة بعطف عميق وحميم على هذا الشحوب الساحر . وجاءها صوته نديا كوشوشة النبع بين الصخور . رقيقا كنسمة فجر ظليل .

ــ تأخرت عليك ؟

وعندما وضع فى فنجانها قطعة واحدة من السكر كما تعودت أن تضع عرفت أنه لم ينسها فقالت مبتسمة :

ــ ما زلت تذكر أنى لا أحب المزيد من السكر ..

وأجاب مدحت وهو يقدم لها الفنجان .

ـ هل فى وسعى أن أنسى ؟

وتلاقت عيونهما طويلا واستطرد مدحت ـ

ـ لماذا تعاقبيننى على شىء ليس فى مقدورى أن أمنعه .

ـ أى شىء تعنى ؟

ـ حبى لك يا سميرة . لماذا تحاولين الهروب من هذه الحقيقة ؟

وغمغمت فى شرود واضطراب .

ـ لست أدرى .

وقال مدحت وأنفاسه تتلاحق حتى تكاد تسابق كلماته .

ـ ليس فى وسعنا أن نتحدى القدر .

واقترب منها وهو ينقل فنجان الشاى من مكانه الى مكان أقرب ليتبعها اليه.

ـ كم هو جميل أن أخدمك بنفسى فى هذه الآونة القصيرة .

وجلس مكملا وهو يفرك راحته بنشوة :

ـ سأظل أذكر دائما أنك هنا فى هذا المكان جلست . وعلى قطيفة هذا المقعد أسندت رأسك . كم من الذكريات العذاب سأحتفظ بها فى حنان حينما تخرجين من هنا حاملة معك سعادتى .

قالت وهى تأخذ رشفة من الشاى تغرق فيها اضطرابها .

ـ غدا ستصعد الى شقتى وترانى .

وقال مدحت فى أسى :

ــ أبدا • لن يكون نفس الموقف • لن تكونى غــدا كمــا أنت الآن لى وحدى • وعندى •• وبداخلى ••

وتأملت سميرة نفسها • انهــا حقــا داخل ثيابه • يعنى بداخله كما قال • وأحست به داخل روبه • بالجسدين الملتصقين معا ••

احترقت فعلا •• وامتلكتها الرغبة فى خلعه حياء من الواقع الذى تعيشه • فأزاحته عن كتفيها • وظهرت تحته بلوزتها الصوف البيضاء الضيقة وظهر صدرها النافر فعبره مدحت بنظرة خاطفة • وخفضت سميرة رأسها فى خجل وكأنها تبعد عنها منظر سعادة ممكنة ••

وفجأة نحنى مدحت عليها يقبل رأسها ، فصاحت •

ــ كفى يا مدحت • كن عاقلا •

ونظرت اليه فخيل اليها أن فى نظراته ومضات رجل آخر ••• وانتابها الخوف وأحست بالخطر وأدركت ادراكا عميقا أنها فى بيت رجل • رجل تحبه ويحبهــا • أى موقف ؟ •• امرأة تلعب بالنار وتغضب حين توشك أن تحترق •

وصاح مدحت •

ــ سميرة ••

ــ لا تقترب منى !

واستدارت واقفة لتخرج مهما يكلفها الأمر ولكنها رأت نفسها فى أحضــانه فصرخت •

ــ أتركنى أرجوك •

وابتعد عنها خجلا وهو يتمتم فيما يشبه الندم .

— آسف يا سميرة . آسف جـدا تأكدى أن احترامى لك لا يقـدر .. وأرضتها العبارة الأخيرة وقالت وهى تود أن يمنعها .

— طيب دعنى أخرج . ربما حضرت والدتك .

وأمسك بيدها فى ضراعة حبيبة .

— أستحلفك بالله . أمكثى قليلا . ليس هناك من خوف . عندما تدق ماما الباب ستلبسين معطفك وستعلم أنك أتيت لتتسلمى نقودك .

قالت معترضة :

— ربما تفتح هى الباب بمفتاحها .

— ليس معها مفتاح . لقد ضاع المفتاح الثانى . انها تخرج وتغلق الباب بلا مفتاح اعتمادا على وجودى هنا . أمكثى . أريد أن أحدثك .

وسرعان ما أطاعته فى استسلام غريب . وأحست وهى متجهة معه الى المقعد فى هذه الخطى القليلة أنها تعبر الجنة . ورأته بقربها يمضى بها الى اللامجهول . وجلست وجلس تحت أقدامها على السجادة وعانقت أصابعه أصابعها فى قوة وتمتم:

— دعينى أستريح هنا تحت قدميك . كما يفعل الراعى تحت سفح الجبل . لقد تعبت ياسميرة . أنت مرفئى الأمين .

قالت فى مكابرة :

— أنت بحر تسبح فيه زوارق عديدة مشرعة .

وفهم أنها تشير الى ايمان وتظر الى أعماق عينيها العسليتين وقال جادا :

— ولكن الشمس هى الوحيدة التى تستحم فوق أمواجه العميقة المؤمنة . وتصعد بأنفاسه بخارا الى السماء .

وصمتت فقال :

ـــ تكلمى يا سميرة • أريد أن أسمعك تتكلمين •

ـــ ماذا أقول يا مدحت ••• لا أجد كلاما ••

ـــ قولى أى شىء • انك أصداء جميلة تمتزج فى وحدة رائعة •• كم أحب صوتك • كم أحبك •

وأترعت الكأس وسمعت نفسها تقول له •• وكأن شخصا غيرها ومن داخلها هو الذى يتكلم :

ـــ وأنا الأخرى يا صديقى • •

ثم تنبهت فالتفتت اليه ضارعة :

ـــ ليتك تنقذنى من نفسى يا مدحت • ليتك لا تدعنى أغرق •

وهب واقفا واقترب بكرسيه منها •

ـــ ما أجمل عينيك عندما تنظرين الى كل ما فيك جميل • أنت جميلة الى حد مذهل • لماذا تغرقين ؟ أنظرى الى الحاضر الجميل • اننا سنتزوج • وسنعيش حياة كلها أحــلام وآمال • كيف يطاوعك قلبك على أن تحرمينا من هذه الحياة •

وارتجفت سميرة وشريط الحياة والوعود يمر أمام مخيلتها صورة فى اثر صورة • وفى عينيها بريق الفرحة فالتفتت اليه فى ابتسامة حلوة راضية وسألته : قل لى يامدحت • لماذا أحببتنى ؟

وضحك وهو يضمها اليه :

ـــ انى فضولى • أحس عذوبة الاشياء العميقة •

وفتحت عينيها فى دهشة :

ــ ماذا وجدت فى من غرابة استدعت فضولك ؟

ــ غرابة جمال من نوع نادر •• من نوع فريد • وقد يوجد بعض جمال الحياة فى أشياء لا يتنبه عليها الا الموعودون • وأنا موعود •

ــ كن بسيطا ولا تهرب من سؤالى ؟

ــ هل تذكرين ليلة من ليالى الاستقبال عندك • سعدت فيها بأول زيارة لك؟

ــ أذكرها كأنها الليلة •

ــ فى تلك الليلة جرت أشياء عادية بالنسبة لغيرى • أما بالنسبة لى فكانت عظيمة • ليلتها اكتشفت كنزا •• غير مجرى حياتى •

ــ لا تبالغ يا مدحت • أرجوك •

ــ لن أبالغ •• بكل أمانة •• كنت أجلس معكم فى حجرة الجلوس تحت الصورة الكبيرة والتى تمثل منظرا من الريف •• وأشارت دولت صديقتك الى الصورة وقالت : انها من رسم سميرة عندما كانت فى المدرسة • أتذكرين ؟

ــ أذكر • نعم •

ــ تطلعت أنا الى الصورة كما تطلع الحاضرون ولما كانت عيناى فى طريقهما الى الصورة • فجأة تقابلتا مع عينيك فارعشت غرابتها قلبى •••• ولأول مرة اكتشفت فيهما أعباء أحلام ثقيلة • أعترف أنها أثارتا فى نفسى ذكريات عيون أخرى كثيرة مرت بى فى حياتى وقد يكون من بين تلك الأعين ما هو أكثر جمالا وسحرا ولكنها كلها أقل جلالا وأقل عمقا وأقل غموضا وأقل جاذبية •• كانت عيناك مرآتين تعكسان كل الصور الخارجية وخيل الى ساعتها أنهما تعكسان روحى • روحى الملأى برغبات الوجود وأحلام الشباب • روحى القلقة الملول •

واستطعت فى بضع ثوان أن أعيش فى عينيك عمرا كاملا ••• وليلتها أحسست أن مجرى حياتى قد تغير •••

وأسبلت سميرة عينيها وعندما رفعتهما كانت هناك شعلة متدسة تتوهج فيهما وعلى شفتيها ابتسامة طفلة تلح على أبيها أن يواصل قصة الشاطر حسن حتى يداعب النعاس عينيها •

وواصل مدحت حديثه •

ـ وفى الأسبوع التالى عندما صعدت اليك وبينما كنت تتحدثين مع الغير تأملتك مليا • • اجتاحتنى رغبة قوية فى التأمل • هذا الرأس الجميل بشعره الخروبى العجيب • هذا الأنف الدقيق • هذا الفم • هذا الخصر النحيل • هذه البشرة الوردية • كلها أشياء عادية • انما العينان هما اللتان ترتعشان وتلتمعان غارقتين فى عذوبة ملاك يتخفى فى ثوب انسان ••• وساءلت نفسى أى روح يا ترى تبعث كل هذا فى هاتين العينين الساحرتين ؟

وضحكت سميرة من كل قلبها المفعم حبا وهى تكاد تطير على أجنحة من الأنغام الساحرة وقالت :

ـ أيها الشاعر • لم أكن أعرف أنك تحب التأمل فى وجوه الناس •

وضمها بقوة فلم تقاومه بل أحست بخدر يسرى فيها وهو يقول :

ـ انى أتأملها تأمل الناسك •

وضحكت سميرة :

ـ هل تقرأ الوجوه ؟

قال ضاحكا :

ـ قليل منا من يتحكم فى حركات وجهه •

قالت مازحة :

ـــ وجهك لا يقول انك تحبنى .

وقرب وجهه منها وحدق فى عينيها طويلا ثم أمسك بيديها وقال جادا :

ـــ اقسمى أنك جادة . وأنك لا تشعرين بصدق حبى .. وأنا أعنيك منى الى آخر يوم فى عمرى . هل تستطيعين أن تقسمى ؟

قالت وهى تهز رأسها وتسحب يديها :

ـــ كلا .

وامتلأت عيناها بالدموع .

ـــ سميرة . ماذا بك ؟

قالها مدحت فى فزع المحب الخائف على حبيبته فابتسمت ابتسامتها المشرقة الحلوة وقالت تطمئنه :

ـــ لا شىء . انها السعادة . لا تخف .

ـــ أعطنى اذن عينيك لأجففهما . أنظرى الى .

وجاءه صوتها رقيقا كالنسيم . حالما كالخيال . فيه ابتهال .

ـــ أنت حبى الأول .

ثم غطت وجهها بيديها ضاحكة :

ـــ تصور .. أنا خجلى أن تسمع أذناى صوتى ..

وأغلق ثغرها بقبلة نامت على شفتيها نوما لا يستطيع الناظر اليهما أن يقدر لها عمقا أو عمرا وتمتم هو :

ـــ مجنونة ..

الفصل الثالث عشر

صاحت دولت بأشواق ٠

ـ دعيها يا شـوق تتكلم ٠ مالك الآن وسـيرة الأوكازيونات والفساتين انْ سميرة استدعتنا لتفضي الينا بسر خطير قبل أن ترجع هدى من المدرسة ٠

ثم التفتت الى سميرة :

ـ قولي يا حبيبتي ٠ هاتي ما عندك ٠ خير ان شاء الله ٠

وقالت سميرة وقد تبدت علائم الجد على محياها :

ـ شـوق بنت عمي وصـديقة عمري ٠٠ ودولت أصبحت في مكانتها من نفسي ٠٠ واذن أنتما أعز الناس عندي ٠ وأقربهما الى قلبي ٠

وضحكت دولت وقالت :

ـ أراهن بعمري أن الأمر يخص مدحت ٠

ونظرت سميرة اليها في دهشة ٠٠ وقالت :

ـ غريبة كيف علمت ؟ نعم يا دولت ٠ مدحت طلبني للزواج ٠

قالت أشواق وقد زمت شفتيها وهزت رأسها :

ـ أنا الأخرى كنت أتوقع هذا ٠

وصاحت دولت في فرحة طفل ٠

ـ برافو ٠ وصلت أخيرا :

قالت أشواق فى عتاب :

ــ وصلت الى الهاوية ••

واعترضت دولت :

ــ فال الله ولا فالك يا شوق •• أنت دائما متشائمة •• أى هاوية ؟ الزواج هاوية ؟ المسألة كلها هل تحبه ؟ هذا مربط الفرس •

ــ سميرة تحب وهى فى هذه السن يا دولت ؟ ياشيخة اتقى الله •

ــ ما شاء الله • أليس لها قلب ؟ يقولون فى الكتب ان الحب يعرف الطريق الى القلب، كما تعرف الفراشة الطريق الى الزهرة •

ــ دعينا من الكتب يا دولت • المسألة خطيرة •

قالت سميرة فى حنان :

ــ لقد أحبنى مدحت بكل سنيه الثلاثين • بكل حرارة شبابه الثائر •

واستخف التعبير دولت وقبلتها فى حرارة المنتصر وهى تصيح :

ــ اذن أغمضى عينيك وتزوجيه فى أقــرب وقت يا سميرة • ولا تستمعى لشوق • لا تطفئى توهج الحب •

قالت سميرة مؤمنة بما تقول :

ــ يدفعنى الخوف من انطفاء هذا التوهج الى الحرص عليه ولهذا أفضيت اليكما الحقيقة لتقول كل منكما رأيها بصراحة •

ــ رأيى أنك عاقلة • عاقلة الى أبعد حد • تمتعى بحياتك فقالت أشــواق فى غضب :

ــ تتمتع بحياتها • والناس يا دولت ؟ ماذا يقولون ؟

وأشاحت دولت بيدها ثائرة كأنها تطرد أشباحا أمامها :

ـ الناس ؟ لعنة الله على الناس • الزواج شريعة الله • سميرة • تمتعى بمن تحبين ولكن كونى حريصة على أموالك وأموال ابنتك !•• هذا هو كل تحذيرى•

قالت سميرة فى ثقة :

ـ مدحت أسمى مما تظنين • لقد جربته •

وتنهدت دولت وقالت :

ـ هذه مسألة تقدرينها أنت وتتحملين المسئولية فيها •• أنا فقط أحذرك لأنى كنت مثلك أظن مصطفى طليقى رمزا للنزاهة ثم طلقنى بعد عام من زواجى • بعد أن سرق مصوغاتى • انه مجتمع فاسد •

قالت أشواق ضاحكة :

ـ وما ذنب المجتمع ؟ أنا أبديت رأيى فى هــذا الزواج لفــارق الهسن • لا لسوء المجتمع • أما المجتمع فلا ذنب له • انهــا فئة من الرجال مثل مصطفى طليقك ••

ـ أتريدين أن تعرفى ما ذنب المجتمع •• ؟

ـ قولى يا فيلسوفة •

وأشارت دولت الى سميرة :

ـ ها هى ذى احدى ضحاياه • ان المجتمع لا يرحم المرأة التى تبيع جسدها مقابل بضعة قروش تسد بها رمق أطفالها • ثم هو يشجع فى نفس الوقت زواج فتاة بريئة ساذجة صغيرة كسميرة برجل لم تره وتكون النتيجة اما الخيانة الزوجية واما هذا الشقاء الذى ترينه يطل من نظرات سميرة المسكينة • لقد علمنى الزمن أشياء كثيرة يا شوق ••

قالت شوق :

ـــ قد يكون فيما تقولين بعض الحق بالنسبة لأيامنا نحن أما الآن فنحن قادمون على عهد جديد . ان الثورة ما زالت صبية . وهى معنية ببناء المجتمع .

قالت دولت لأشواق :

ـــ منذ متى يبنى الانسان أخلاق الانسان يا شوق . ان المجتمع هو المجتمع فى كل مكان وزمان . ربما تتغير أشياء كثيرة وقد تمضى بنا الى الأفضل . ولكن علاقة الرجل بالمرأة لا يمكن أن تتغير .

قالت سميرة فى ضيق :

ـــ يا ناس . ردوا على الآن . دعوا هذه البحوث .. هدى أوشكت أن ترجع من المدرسة . ما رأيك الأخير يا بنت عمى .. ؟

وهزت أشواق كتفيها يائسة ..

ـــ تزوجيه . كل ما أقوله لك انك ستكونين موضع نقد الناس و .. وقاطعتها سميرة ثائرة :

ـــ ألم يتزوج الرسول خديجة ؟

ـــ كان نبيا .. كانت كل زيجة له لحكمة .. دعى هذا القياس .

وخفضت سميرة رأسها فى شرود ثم رددت ببطء كأنها تحدث نفسها :

ـــ من المستحيل على امرأة مثلى تجاوزت سن الشباب أن تتجاهل حب شاب كمدحت . ربما استطعت فى أول الأمر . أما أنا الآن . لا أكتمكما . أصبحت أحيا بكلمة منه .. بالهواء الذى يستنشقه ..

واعترت دولت نشوة عارمة ونظرت الى سميرة تلتهم كلامها التهاما .

ـــ يا ناس . يا سلام على الحب ...

وقالت أشواق :

ـ ثم انك أم يا سميرة . هذا هو الوجه الثانى للمشكلة .

وقالت سميرة معترضة ثائرة :

ـ اننى أم حقا . ولكنها ارادة الله وليست ارادتى . ما هو الابن . أليس هو ثمرة احساسين ، أليس هو صورة لكائنين قد ارتبطا لحما ودما ؟ فان لم يكن ذلك الابن لحنا دقته أوتار قلبين ممتلئين حنانا وحبا . ان لم يكن يذكرنا بعاطفة مشبوبة ، بزمن مضى ، بمكان سعدنا فيه . ان لم يكن كذلك فماذا يكون أتسمعين يا شوق ؟ ماذا يكون ؟

قالت أشواق بحزن :

ـ أنت اليوم لست طبيعية .

واستطردت سميرة :

ـ الابن هو الأمس والغد . هو نبع مشاعر أبوين حبيبين .

ـ وما دخل هدى فى هذا الكلام .. ؟

ـ لها كل الدخل . هدى ابنة القدر . انى أحمل لابنتى غريزة الأمومة . انى أستجيب للاحساس الجارف الذى يدفعنى لحماية مخلوق حملته أحشائى . انى أضحى لها بسعادتى وروحى . ان أقل ألم يعتريها يمزق أعماقى تمزيقا ولكنى كنت أحلم بأمومة أجمل . بأمومة أكمل . لو أن أمومتى نشأت عن حب .

قالت دولت ...

ـ أنت على حق .

وقاطعتها أشواق :

ـ اسكتى أنت يا دولت • ان الأمومة لا تعترف بشىء من ذلك • انها قبس من نور الله •

وهزت سميرة رأسها مكملة :

ـ ان التضحية التى بذلتها لأجل هدى غالية • يا أشواق كان أبوها قاسيا شريرا • ومع ذلك فماذا على أن أعمله لأجلها ان هدى لم تعد صغيرة • انها كبرت وعما قريب ستتزوج • أريد أن أستمتع بحياتى الباقية • أريد الحب ••

قالت أشواق :

ـ أنت حبيبة الى قلبى يا سميرة • وأنا أخشى عليك من الهوان •

ـ لا أعتقد أنى أهون وأنا زوجة لمدحت • انه من أصل طيب •

ـ وهل قبلت والدته ؟

ـ من أجل سعادة ابنها لم ترفض •

ودق جرس الباب فقالت سميرة :

ـ انها هدى •

وهمت أشواق واقفة وهى تقول :

ـ يعنى لا فائدة •• ؟

أجابت سميرة :

ـ لقد صح العزم منى •

قالت أشواق وهى تهم بالانصراف :

ــ انى حزينة لأجلك . انها صحوة الموت .

وأخفت سميرة وجهها بيديها وهى تتمتم :

ــ لتكن صحوة الموت . أفضل أن أعيشها قبل أن ألفظ أنفاسى . على كل حال يا أشواق أنا استدعيتك فى الحقيقة لتكونى واسطة تفاهم بينى وبين هدى فى هذا الموضوع . ويظهر أنك ترفضين وعادت أشواق الى سميرة والجرس يوالى دقاته وهى تقول :

ــ لا . لا يا سميرة . أنا على استعداد يا بنت عمى لكل ما تطلبين . لا تشكى فى . متى أرسل اليها لتصعد عندى .. ؟

ــ الساعة العاشرة مساء . ان مدحت سيزورنى فى هذه الساعة . لا أريدها أن تراه ...

ــ وهو كذلك .

ــ افتحى الباب لهدى يا أشواق ...

الفصـــل الرابع عشر

فى هذه الليلة هبطت هدى من شقة أشواق فى ساعة متأخرة وسمعتها سميرة تعبر الصالة وتتجه نحو حجرة نومها ولأول مرة تنام الأم دون أن تحظى بقبلة من الابنــة .

وفى الصباح طرقت سميرة باب حجرة هدى ودخلت ..

كانت هدى لابسة زى المدرسة جالسة على السرير مســتندة برأسها على حافته الخشبية ..

— صباح الخير يا هدى .

ولم تجب وجلست سميرة الى جوارها ولفت ذراعها حول خصر هدى قائلة :

— يا حبيبتى . قولى اننى لم أغضبك . أنت تبكين يا هدى ؟ ما أفظع أن أراك باكية .. وحياتك عندى سأحبك أكثر من ذى قبل . سيكون هناك اثنـــان يحبانك لا واحد فقط . أقسم لك . ان مدحت طيب . ومع الزمن سوف تحبينه .

وارتعشت هدى من رأســها الى قدميها وتملصت من ذراع أمها مستنكرة وتوقد وجهها غضبا .. واندفع الكلام من بين شـفتيها عارما كالسـيل عنيفا كالعاصفة :

— هو ؟ أحبه ؟ لن يكون ذلك أبدا .

— هدى ..

— أبدا . أقول لك أبدا .. انه رجل غريب . سيقلب حياتنا رأسا على عقب وتمالكت سميرة أعصابها وقالت فى عتاب حزين :

— كنت أنتظر منك شعورا أنبل يا هدى . لم أكن أظنك تغضبين لسعادة

أم فى أعوامها البـاقية .. اسـتمعى الى . ان فى حيـاة المرأة حبين . الأمومة والزوجية ...

قالت هدى وهى تنظر الى أمها فى برود الهدوء الذى يعقب العاصفة :

ـ نعم الزوجية . ولكن ليس من شاب يصغرك بعشرة أعوام .

وبدأت سميرة تفقد أعصابها واغتاظت من تلك الفتاة التى تنسى احترام الأم.

ـ ومع ذلك . ألم أضح بشبابى ؟ هل يجب أن أكون أنا دائما الأكثر وفاء منك .

وتمتمت هدى بسخرية :

ـ بل الأكثر عقلا .

ـ ماذا تقولين ؟

وانتفضت هدى واقفة وقد احمرت مقلتاها واختنق صوتها .

ـ أريد أن أقول انك لا تحبين الحقيقة لأنها مؤلمة . لا تستمعين الى صوت العقـل .

وأحست سميرة أن الأرض تميد بها :

ـ أنت ابنة جاحدة . جاحدة .

وأجهشت بالبكاء . وفزعت هدى وجلست الى جوارها وقد عاد اليها الهدوء ووضعت يدها على كتف أمها :

ـ لا تبكى يا ماما . سامحينى اذا كنت قد عذبتك . لم أفعل ذلك لمجرد القسوة عليك بل لأجنبك الندم على ما ستفعلين .

ـ أحزنتنى كثيرا يا هدى .

ـ أبدا يا ماما . كل ما قصدته أن تعدلى عن هذه الفكرة ..

وساد سكون رهيب وسألت هدى فى هدوء :

ـ قولى يا ماما . هل حددتما الميعاد .. ؟

ـ أى ميعاد ... ؟

ـ الزواج طبعــا .

ـ بعد أسبوعين يا حبيبتى .

ـ اذن سأسافر أنا الخميس المقبل .

وصرخت سميرة :

ـ تسافرين ؟ الى أين ؟

وتبسمت هدى فى بساطة من اتخذ قراره النهائى ، وعرف طريقه :

ـ الى العزبة . طبعا .

ـ الى العزبة ؟ وماذا تفعلين هناك ؟ وكيف تعيشين وحيدة ؟ ومدرستك ؟ وأنا ؟ أنا ؟ وكل ما حولك ؟

قالت هدى فى تصميم وبحزن ومرارة :

ـ كل ما حولى أستطيع الاستغناء عنه . ان هناك بيتى ومكانى وحياتى... فكرى جيدا يا ماما وستقتنعين بسلامة تصرفى ، ان فيه راحة لك ... ولى .

وفكرت سميرة ثم رفعت وجهها وقالت كمن يفيق من حلم •• :

— انى راضية عن هذه الفكرة يا هدى • على الأقل فى الوقت الحاضر • على شرط ألا يطول غيابك •

— لى رجاء أخير • أريد أن أصحب معى داده نعيمه •

— لو لم تقولى لأرسلتها معك • انى لا آمن أحدا غيرها عليك •

— لن تحتاجى اليها هنا • فى وسعكما أن تحضرا غيرها من الخدم •

أجابت سميرة :

— وسأرسل أيضا الى عمتك خديجة كى ترعاك •• خليفة هو الآخر خير من يرعاك ، ويقوم على خدمتك ••

وهزت هدى كتفيها غير مبالية :

— انهما ليسا فى حاجة الى توصية •

وقالت سميرة فى ألم وأسف :

— ستفقدين العام الدراسى يا هدى • ما أفظع ذلك ؟

ومطت هدى شفتيها وهزت رأسها :

— لقد فقدت كل شىء •

ثم استدركت :

— ومع ذلك • فان هوايتى الرسم والحياكة • سأكرس وقتى لهما • أما القراءة • فعندى دار الكتب فى سوهاج • أستطيع أن أستعير منها ما أشاء وأشترى ما أشاء ••

ثم مدت يدها فتناولت محفظتها المدرسية وخرجت •••

الفصل الخامس عشر

أحست هدى فى الأيام الأولى لوجودها فى العزبة بملل قاتل ووحشة مضنية. كانت تذرع حجرات « السراية » الواسعة كأنها روح تهيم فى فضاء كبير .

وكثيرا ما كانت تمر بمخيلتها تلك الشقة المدهونة بالزيت الأخضر شقتها بالمنيل . وهذا الصف من العمارات الجديدة مرتصا على شاطىء النيل . والزوارق الرشيقة العائمة . والحركة الدائبة والأنوار الساطعة ... وتقارن كل ذلك بصمت العزبة الذى يشبه صمت القبور فلا تجد وجها للمقارنة . ولم يخرجها من هذا الضيق الا عم خليفة وداده نعيمه .

وما كادت تظهر فى دروب العزبة حتى استقبلتها بفرح وسرور . وشيئا فشيئا عادت هدى الى طبيعتها القديمة تلعب وتمرح وتمتطى حمارتها عزيزة وتسرح بها وسط الحقول أو يقودها درويش الى قرية عمتها حيث تحيك لزينب بنت عمتها الثياب المزركشة وتسرح شعر أطفالها وتشاركهم الغناء وعاد الى وجه داده نعيمة البشر والصفاء واستردت عافيتها وحيويتها .

وكتبت سميرة لها فى بادى الأمر رسائل مليئة بالحب والحنان وكانت تقص عليها ما شاهدته من أفلام سينمائية أو مسرحيات فضلا عن المراقص .

وعقب كل رسالة كانت هدى تشعر بالحزن العميق . أهذه هى أمها ؟ الرشيدة التى عرفتها ؟ أم هى فتاة مراهقة لا تعرفها فتاة ظامئة الى اللهو على هذا النحو والى هذا الحد .. تجرى مسعورة وراء العبث كأنها منومة . ثم يعترى هدى الدوار كأنما هى التى رقصت وسهرت حتى الصباح . وكما لو أن ضجيج الموسيقى الصاخب يتردد فى أرجاء البيت ويعصف به عصفا أو يدكه دكا ، وكانت أمها تمدح زوجها كثيرا ثم تختم كل رسالة بالالحاح على هدى أن تعود لتكمل دراستها وتعيش بينهما سعيدة مدالة

وكانت هدى ترد على أمها فى اقتضاب ....

وجاء ميعاد سفر عم خليفة الى القاهرة حاملا الايجار الى سميرة هانم . وعندما عاد كان فى جيبه هديتان الى هدى .

الأولى من أمها وكانت قلما من الحبر « باركر » والثانية من مدحت وكانت علبة حياكة . فأخذت هدى القلم ووضعته فوق مكتبها الصغير فى حجرة نومها . وأما العلبة فدستها فى أعماق درج مهجور من أدراج البوفيه كى لا تقع عليها عيناها ..

وهل الربيع .

والربيع هو فصل الزهور والبراعم ...

فصل التنهدات والدموع والابتسامات والضحكات ..

وهل الربيع حاملا معه دفء الشمس وسحر العبير ...

ونفضت الطبيعة عنها ثياب الجمود والكسل ..

وتوردت الخدود والتمعت العيون واحتقنت الشفاه ...

وتحولت القلوب الى زوارق تنساب بلا مجاديف ...

وأحاط الربيع بهدى فاكتملت أنوثة وشبابا ...

غدت كالوردة المتنشية بادراكها ذروة الجمال حاملة الى المحبين أسرار المشاعر ...

وبدأت تكثر من الجلوس فى « فراندة السراية » تتأمل من بعيد جنوح الشمس الى المغيب ودخول السحب فى معركة ألوان ثم انتشار الظلام فوق هذه

العزبة الصغيرة النائية فى أقاصى الصعيد ليغطى الحقول المترامية الأطراف والبيوت المتناثرة الصغيرة . ومن هنا أو هناك يعوى كلب أو ينهق حمار أو يلمع بصيص نور ... ومن خلال هذه الرؤى تتذكر هدى أمها فى القاهرة وتذكر أن هذا الوقت هو ميعاد استعدادها للخروج لقضاء السهرة هنا أو هناك .

وبدأت تقل رسائل أمها اليها . ولم تعد تحمل تلك الرسائل القليلة روح السعادة الطافرة القديمة وان كانت تحمل وصف السهرات بنفس الحماسة ولكن بلهجة غير صادقة .

وكان فيها شوق للقرية فى هذا الفصل الربيعى الزاهر ...

ومع البعد . وعلى مر الزمن بدأ شعور هدى يتغير من ناحية أمها لم تعد تفكر فيها بغضب منها أو ثورة عليها . أصبحت تفكر فيها تفكيرا ودودا يموج بالاشفاق والحنين .

الفصل السادس عشر

وأخيرا • انتهى العام الدراسى الأخير للجامعة • وجاء اليوم الذى يعود فيه سامى خليفة الى قريته وقد أكمل تعليمه وتخرج •

وكان يوم عودته عيد الأعياد للعزبة • اذ عاد اليها ابن من أبنائها — لأول مرة فى تاريخها — مهندسا زراعيا •

وعلى أول السكة الزراعية • وقفت هدى مع عم خليفة وأهل العزبة يستقبلون سامى بالطبول والزغاريد •

وفى اليوم الثانى من عودته هيأت هدى له مأدبة كبيرة فى السراية وساعدت دادة نعيمه فى طهو الطعام وتوزيع الشربات •• وبدآ معا حياة جديدة فى كل شبر من أرض العزبة كأنهما ملاكان••• يقطفان الزهور ويلقيان بالحبوب الى الدواجن والطيور ويأكلان الفجل والجرجير ويلعبان مع الربيع الطفل ويتسابقان فى الجرى فوق الحمير •••

وذات يوم من شهر يونيو حمل اليها البريد رسالة من أمها مختصرة تقول فيها : هيئى القصر وافتحى نوافذه واصنعى كل مايحلو لك كى يبدو هو والحديقة فى أجمل رونق • سأحضر أنا ومدحت لقضاء شهرى الصيف • وستحضر معنا أشواق ودولت لتمضية الشهر الأول • قبلاتى لك •••

وسرى الخبر فى العزبة سريان البرق • وانزعجت هدى فلم تكن تحسب لهذه الزيارة أى حساب • وبدأت تعتذر عن الخروج مع سامى وتقضى معظم أوقاتها فى « السراية » تباشر ترتيبها مع داده نعيمه ودرويش ابن الغفير • أو تنزل الى سوهاج لشراء ستائر وبياضات وبعض ما ينقص البيت من لوازم •

وقال لها سامى وهما ممتطيان حماريهما فى الطريق الزراعى المؤدى الى كوبرى الترعة ، بعد أن لكزت هدى حمارتها عزيزة فى غضب :

— أنت عصبية المزاج هذه الأيام ...

ولم تدر بماذا تجيب ، كانت عصبية فعلا ، وكانت تدرك سبب هذه العصبية ، ولم تشأ أن تطلعه عليها فقالت :

— وهل تستهين يا سامى بكل ما بذلت من مجهود ؟ خروج ونزول الى سوهاج وعمل مستمر فى السراية من الصباح الى المساء ؟

وقال سامى :

— معك حق ، حتى الحديقة لها نصيب منك ، انى أراك كل يوم من بيتنا وأنت تعطين الأوامر للبستانى حتى أصبحت الحديقة منسقة جميلة ، أوشكت أن تغلبى مهندسى الزراعة فى مهنتهم ..

قالت هدى :

— كل ما يمت الى الطبيعة بصلة أحبه ...

وبان كوبرى الترعة ، فقال سامى وهو يستعد للهبوط من الركوبة :

— انتظرى ، سأنزل أنا أولا لأساعدك على النزول .

واتكأت عليه ثم وثبت الى الأرض فى رشاقة ، وتركا الحمارين بين الحشائش ثم افترشا الأرض المبللة وقال سامى :

— قريبا سيتغير نظام حياتنا ، وداعا أيها الكوبرى ..

قالت هدى وقد فردت ساقيها فوق الأرض الخضراء :

— هناك أشياء تضايق لابد أن يتحملها الانسان .

وتبسم سامى وقال فى رضا :

ـ أتعنين أننا لن نتمكن طيلة هذين الشهرين من لقاء دائم ؟

ـ قالت معترضة :

ـ ومن قال لك اننا سنحرم من هذه النزهات ؟

أجاب سامى وهو ينظر الى ماء الترعة الكثيف الأسمر :

ـ قد تغضب سميرة هانم .

ونظرت الى وجهه الحائر مندهشة :

ـ ولماذا تتضايق ماما من خروجى معك ؟

وصمت قليلا كأنه نادم على اثارة هذا الموضوع ثم قال فى تواضع :

ـ لأننى ابن عم خليفة الخولى .

ورفعت هدى حاجبيها الكثيفين وهى تتساءل :

ـ وماذا فى ذلك ؟ لسنا غريبين . انى أعد أختك . لقد تربينا معا ...

ورنت كلمة « أختك » هذه غريبة فى سمعه وحزت كالسيف فى أعماق قلبه . اذن هدى تعامله كأخ ، كل هذا العطف منها لم يكن الا شعورا بالأخوة ؟ ما أتعسه ! ورآها ما زالت تنتظر جوابه فأخرج من جيبه حفنة من الفول السودانى ليخرجهما من موضوع الحديث وهو يقول :

ـ ألا تأخذين ؟ انه ما زال ساخنا .

وضحكت مداعبة وهى تملأ يدها :

ـ فول سودانى .. يا لك من شيطان . أنت تفسد على بقولك هذا رجيم النحافة الذى أتبعه . ياه . كم هو لذيذ وشهى .. وراحت تلتهم الفول بأسنانها البيضاء اللؤلؤية .

وهب واقفا :

ـ سأقطع لك بعض الجرجير . ان الخضروات النيئة تساعد على عدم السمنة .

وانحنى يناولها أعواد الجرجير ثم عاد الى جلسته .

وران صمت وعادت هدى الى الموضوع من جديد :

ـ أنت تفكر بعقلية قديمة . ليس بيننا وبينكم أى فارق . انك استطعت أن تكون ما لن أستطيع يوما أن أكونه .. ان كان هذا رأيك فينا . فأنا غاضبة منك ...

قال ضاحكا :

ـ لم يكن هذا ما قصدت اليه . كنت أخشى ألا تقبل سميرة هانم أن ترانى معك لأننى كبرت .

ـ بالعكس . ان ماما تحبك وتقدرك ...

ـ لاحظت فعلا وأنا فى القاهرة أنها كانت تستقبلنى بحفاوة كبيرة على عكس معاملتها لى فى الماضى عندما كنا فى العزبة .

ـ كنت ولدا صغيرا ...

ـ وكانت توبخنى كثيرا .

ورفعت هدى اصبعا محذرة :

ـ لأنك كنت شقيا • تجبرنى على عدم طاعتها • كنت تصحبنى طيلة اليوم فى أنحاء العزبة وتعود بى اليها بثوب ممزق وشعر منفوش •

وضحك سامى بكل قلبه :

ثم استطرد فى بطء وتنهد :

ـ ليتنا ما كبرنا • كانت أياما لا تعوض •

ـ نفس الفكرة خطرت فى بالى الآن •

ـ لابد أننا لم نكبر فعلا • ما دمنا نفكر فى نفس الشىء • واعترضت :

ـ لم لا تقولَ أننا كبرنا لأننا أصبحنا نفكّر فى نفس الشىء •

قال مداعبا :

ـ اذن أى شىء تفكرين فيه الآن ؟

ـ كنت أريد أن أسألك متى ستتسلم عملك ؟

ـ أوائلَ شهر أغسطس •

وتنفست بقوة :

ـ سيكون مجهودا شاقا أن تنزل كلّ يوم الى أخميم •

ـ فعلا • يلزمنى مجهود شاقٌ ولكن العملَ جميل •

ـ سيكون سهلا اذن ما دمت تراه جميلا ••

وضحكَ مداعبا :

ـ عندما أتوظف سأدخر كل شهر مبلغـا يعيننى على شراء قطعـة أرض • لا تخشى أن أنافسكَ فى الملكية •• ؟

ــ بالعكس . سأكون فخورة بك ومزهوة ..

ثم نظرت الى ساعة يدها صائحة :

ــ ياه ! أخذنا الوقت من غير أن نحس . الساعة الواحدة .

قال وهو يأخذ بيدها :

ــ ستعودين معى . أبى فى انتظارك .

ــ فى هذا الوقت ؟ كلا . سأحضر عندكم فى المساء ، وبينما كان يساعدها على الركوب قال لها وكأنه يتوسل اليها :

أرجوك يا هدى . لقد وعدت أبى . انه فى انتظارك .

ــ سأذهب معك . لن أستطيع أن أدعه ينتظرنى .

ــ ووقفت هدى مشدوهة أمام المائدة الطويلة المليئة بكل أصناف اللحوم والطيور والخضروات والفطائر .

وضحك عم خليفة وهو يضمها اليه :

ــ هل نسيت يوم ميلادك . كل سنة وأنت طيبة يا ست هدى .

ــ وأنت طيب يا عم خليفة . فقط لى شرط اذا أردت أن ألبى طلبك وآكل .

ــ على العين والراس .

ــ أنا هدى فقط .

ــ وهو كذلك .

ودخلت دادة نعيمة ضاحكة تزغرد وصاحت هدى فى دهش .

ــ أنت هنا ؟ لو لم تكونى معنا لحزنت .

ومسحت دادة نعيمة دموعها وقالت فى زهو :

وأنا التى طهوت الأكل .

واقترب سامى من أبيه متسائلا :

لقـــد تأخروا ...

انهم فى الطريق ..

وتساءلت هدى فى حيرة :

من هم ؟ أهناك ضيوف غيرنا يا عم خليفة ... ؟

ـ عمتك وزوجها وبقية الآسرة .. موافقة .. ؟

أنت طيب يا عمى خليفة . سأخدمك فى الأفراح ان شاء الله .

قال سامى مداعبا :

لعل عمك خليفة يوما يتزوج فتسنح لك الفرصة .

وقال أبوه :

ـ أنا .. أعوذ بالله . ولمــاذا لا يكون فرحك أنت يا ولدى .

وقالت دادة نعيمة :

ـ والله عم خليفة غلطان . يعيش أربع سنين من غير زوجة .

وهز عم خليفة رأسه :

ـ لغاية ما أموت لا زواج . كانت أم سامى لا تعوض يا نعيمة ... ثم تمتم:

ـ فات الوقت .

قال سامى معترضا :

— لم يفت الوقت . لقد أخطأت فى ظنك يا أبى .

ووثب من الخارج أطفال واقتربت ضجة وسمع صوت الست خديجة وضحك عم خليفة قائلا :

— يالله ياجماعة . السفرة جاهزة . كل سنة وأنت طيبة يا ست هدى يابنتى.

الفصل السابع عشر

دقت الساعة القديمة المعلقة فوق حائط صالة السراية الحادية عشرة . عندما هبط المسافرون من العربة الكارتا الى بوابة الحديقة ... وارتمت هدى فى أحضان أمهـا .

— ماما ... ماما .

وقال مدحت وهو يصافحها :

— لو لم أكن رأيتك من قبل لمـا عرفتك الآن .. تركتينا صبية ووجدناك شـابة .

وقالت دولت :

— ما شاء الله . هكذا الشباب والا فـلا . تعالى يا حبوبتى لأعطيك قبلة عريضـة . انظرى يا شوق ان هـدى أصبحت عروسا . سأبحث لها عن عريس فى القـاهرة .

وضحكت أشواق ساخرة وهى تصعد سلم السراية ...

— يا خيبتك . ابحثى عن عريس لنفسك أولا .

وقطبت دولت حاجبيها وألقت بيدها فوق كتف أشواق :

— انهم على قفا من يشيل . تركت العشرات منهم ورائى فى القاهرة . حزانى على فراقى ....

وداعبتها أشواق كعادتها :

— واقفين على رصيف القطار . أليس كذلك ؟

وضحكت دولت فرن صوتها الأجش فى أنحاء الصالة الواسعة :

— يا ليت . لقد أكلهم قطار الصعيد . وهم منشغلون بتوديعى ..

وبدأت سميرة تعطى الأوامر كسيدة البيت :

ــ هيا يا شوق •• هيا يا دولت اذهبا مع هدى لتريكما حجراتكما وأنت يا هدى دعى درويش يدخل حقائبهما • الحقيبة الرمادية تخصــك أنت جئت لك بأشياء فاتنة • لا تنسى أن تسرعى بتجهيز الغداء ••• مع داه نعيمه •• أوشكنا أن نموت من الجوع •••••

ثم مالت على زوجها وهو يسير الى جوارها :

ــ مدحت • مبسوط ؟ سعيد ؟

وقال مدحت ضاحكا وهو ينظر الى أنحــاء الصالة :

ــ كما وصفتها تماما • المكان فى غاية الروعة ••

وطرقت هدى باب حجرة أمها فى تردد :

الغذاء جاهز يا ماما •

وجاءها صوت سميرة من الداخل :

ــ تعالى يا هدى • مدحت سينام فى الحجرة الأخيرة ••• وأحست هدى براحة كبيرة • لم تكن تريد أن ترى أمها مع شخص آخر فى هذا القصر كــانت تريد أن تحب أمها خلال هذه الفترة بحرية وانطلاق •

وتحسست سميرة غطاء السرير وهى جالسة عليه الى جوار ابنتها وقــالت ضــاحكة :

ــ أحب أن ألمس بيــدى كل شىء هنا • لعلى أتأكد من وجودى فى بيتى بعد هذه الغيبة الطويلة ••

وتأملت هدى أمها . مسكينة هذه الأم . كأنما مر عليها ربع قرن وانطفأت العينان العسليتان الساحرتان . وتجعدت البشرة الوردية والشعر الخروبى .. ان هدى تراهن أن أمها تصبغه الآن ...

هذه السيدة التى عاشت ما يقرب من ثلاثة عشر عاما فى هذه الضيعة محتفظة بشبابها الناضر أضاعته فى فترة قصيرة لا تتجاوز العـام فى القاهرة وسط حياتها الصاخبة ..

ة وأشفقت هدى على أمها وتدفق قلبهـا فياضا طاغيا .. ويبدو أن سميرة أدركت ما يجول بخاطر ابنتها فقالت فى أسى :

ـ أظننى تغيرت يا هدى . قولى الحقيقة . لا تنكرى .

ووجدت هدى نفسها مرغمة على الاعتراف :

ـ نعم .

ـ كنت مريضة هذه الأيام الأخيرة ..د

ـ سيعيد جو العزبة صحتك الى أحسن ما كانت عليه يا ماما واقتربت منها سميرة ..

ـ كم كبرت يا هدى . كان مدحت محقا فيما قال . تعالى فى أحضـانى . وبكت هـدى ..

ـ غريب أمرك . بكيت فى القاهرة عند فراقى .. وتبكين عند اللقاء .

ـ اليوم يختلف .

ـ اسمعى يا هدى . لى عندك رجاء صغير . أتريدين سعادتى ؟

ـ بالطبع يا ماما .

ـ أريد منك شيئا واحــدا • كونى رقيقــة مــع مدحت • لا شىء يهمنى غير معاملتك له •

ـ ســأعمل ياماما على اسعــادك • لاتحملى أى هم من ناحيتى وضمتها سميرة بعنف •

ـ وسأحبك أكثر • فحبينى نت • أنا فى حاجة الى حبك • وزاد بكاء هدى وتعلقت بأمها :

ـ ماما •• ماما •• سأحبك حتى الموت •

قالت سميرة :

ـ نسينا لضيوف • هيا بنا •• أراهن أن دولت تصرخ من الجوع ما أخف روح هذه السيدة •

الفصل الثامن عشر

ومضى أسبوع .. كان الجو جميلا والليل ناعما وأهل القصر فى حجرة الجلوس الواسعة جالسين فى استرخاء بعد أن أرهقهم المشى الطويل عصر ذلك اليوم وسط الحقول ثم بعد أن أثقل العشاء الفاخر بطونهم .أيضا نشطت دولت وأشواق الى لعب « البصرة » على الكنبة الطويلة وبدتا منهمكتين فى حماس بينما استرخت سميرة فى مقعدها القديم الطويل فى ركن من الحجرة وهى تراقبهما فى سكون ...

وكان مدحت يدخن سيجارته وهو يقلب صفحات « ألبوم » لفت نظره فوق « الطاولة » ومن حين الى حين يتطلع الى هدى ويختلس نظرة اليها من غير أن ينتبه أحد . وكانت هدى جالسة أمامه يبدو عليها النعاس .

وعادت الذاكرة بمدحت الى هدى الطفلة عندما كان يراها من نافذة شقته الأرضية وقد حملت حقيبتها المدرسية ولبست المريلة القصيرة ذاهبة الى المدرسة فى الصباح . أين تلك من هذه الآن ؟ لقد تغيرت هدى تماما وتغيرت فى فترة قصيرة . ازدادت طولا وامتلأ جسمها واستدارت كتفاها وبرز صدرها والتمعت عيناها التماع القطيفة السوداء .. أما يداها . يداها اللتان كان يراهما مدحت وهى جالسة تطرز أمام النافذة فى شقتها بالمنيل وكأنهما تحملان خشونة الريف واحتراق شمسه . أصبحتا الآن رقيقتين ناعمتين كأوراق الورد . ومع كل بساطتها . كانت رائعة .

وقام مدحت من مكانه واتجه اليها ..

ورأته هدى يقترب منها بقامته المديدة . وكتفيه العريضتين . وامتلكها شعور غريب . وعندما حدق فيها بنظراته مبتسما تحركت لتهرب من الحجرة أحست بالرغبة فى الهروب من شىء مخيف أو غامض أو مجهول .. لكنه مد يده واعترض طريقها فعادت الى جلستها شاحبة اللون لاهثة الأنفاس وتمتم بصوت منخفض .

— ألا تودين التحدث معى ؟

وجلس على المقعد المجاور لها وقال وهو يحرص على أن يبدو ودودا .

— هدى . الذى أعلمه انى لم أفعل شيئا يغضبك ولكنى أعلم أيضا انك غاضبة على ... أنا وأمك جئنا هنا لنكون أكثر سعادة بك أليس فى وسعك أن تعامليني كأخ لكى أعوضك من حنانى ما حرمت من أخوة ؟

وخفض عينيه كأنما أراد ألا تلتقيا بعينيها . ونظرت هى اليه فى تحد ثم سألته :

— هل كلفتك ماما أن تقول لى شيئا كهذا ؟

واندهش من جرأتها وأجاب :

— فعلا . انها تحب أن ترانا أكثر انسجاما ووفاقا وودا .

— ماما طلبت منى شيئا كهذا عند حضورها من السفر . ووعدتها . ألم تخبرك ؟

— نعم أخبرتنى وانى أشكر لك وعدك .

فلم ترد وأكمل مدحت مبتسما :

— اذن صافحينى علامة الرضا .

وترددت هدى . كأن شيئا فى أعماقها ينهار . أى شعور هو ؟ هى لا تدرى . كل الذى تدريه أن أمها ترقبها من بعيد فمدت هدى يدها الى مدحت وصافحته ونظر هو الى سميرة مبتسما كأنما أراد أن يقول لها : أنظرى . لقد نفذت ارادتك ...

وفى هذه الليلة ، عندما رقدت هدى فوق فراشها ، كانت خائفة .. كأن هناك خطرا يحدق بها لا تعرفه .. كان هناك ظـلام فى أفكارها وطنين فى أذنيها ، ووضعت يدها على عينيها تحاول أن تحدد بعين البصيرة حدود الوجود المترامى لكى تنسى التفكير ، كان وجه مدحت يرعبها ، لقـد نظر اليها من خلال أهدابه واكتشفت فى أعماق عينيه ومضـة غريبة ، وأمها .. أمها .. المسـكينة الحبيبة لمـاذا تبدو محطمة ضعيفة ؟ وهو .. هو لمـاذا يبدو هادئا قويا ؟

ثم أخذتها غفوة فنامت حتى الصباح ..

الفصل التاسع عشر

قالت سميرة وهى واقفة أمام المائدة فى صالة القصر تنظر الى علبة كبيرة ملفوفة بالورق الأخضر .

ـ ما هذا ؟

ثم نادت وهى تقترب منها مندهشة :

ـ درويش .. من أتى بهذه العلبة ؟

ووضع درويش طبق الفول المدمس على المائدة وأسرع الى سيدته .

ـ جاء بها الولد شلبى خدام العمدة الشيخ على مع الورقة دى . وحضرتك كنت نايمه .

وقرأت سميرة ...

ـ اعطانى الأبونيه هذه العلبة لأوصلها لكم . سلامى لكم .

واقتربت هدى مسرعة تنظر فى لهفة من تحت أصابع أمها وهى تمزق الورق الأخضر حول العلبة ..

وصاحت سميرة رافعة الغطاء :

ـ فستان حرير مذهب بالقصب .. من أرسله ؟

ومدت يدها تجذب دبوسا يشك كارتا صغيرا فى جانب العلبة .

ـ ياه .. انه من الأستاذ محمود رفعت ...

وقرأت فى صوت عال :

ــ الى عصفورتى الصغيرة .. الآنسة هدى ــ فستان زفاف .. سلامى للوالدة ...

وعادت هدى الى مكانها خجلى وصاحت دولت وهى تتناول الافطار .

ــ فستان زفاف لهدى من الأستاذ محمود ؟ اذن هو عاد من الكويت ؟

قالت سميرة وهى تجلس أمامها الى المائدة ..

ــ عاد لقضاء الاجازة طبعا . أظن انه ما زال أمامه عام آخر .

قالت أشواق :

ــ انه رجل طيب . لو لم يسافر الى الكويت هذا العام . لما رسب ميمى ابنى فى امتحان اللغة العربية واضطررت الى تركه بالقاهرة ليتهيأ للملحق . يا خسارة ...

أجابت سميرة وهى تقطع الخبز الشمسى بالسكين قطعا صغيرة فى شرود .

ــ انه طيب أكثر من اللازم .

قالت دولت وهى تسند ذقنها بيدها فوق المائدة وتسرح فى الفضاء .

ــ كان حزينا عندما ودعناه فى المطار .

ثم التفتت الى أشواق .

ــ أتذكرين ياشوق كيف كان يختلس النظر الى سميرة اختلاسا ؟

وضحكت شوق :

ــ ألم يقدم طلبا لانتدابه فى الكويت عقب زواج سميرة ؟

قالت سميرة فى بطء وحزن .

ـ كان زواجى صدمة قوية بالنسبة له .انى حزينة من أجله . يخيل الى أحيانا أنى قتلته .....

وتبسمت دولت كعادتها فى كل موقف درامى وقالت محتجة :

ـ وماذا فيك أنت ؟ انه الحب يا حبيبتى . ايه أيها الحب .. يا ضوء عيون النساء يا موسيقى من السماء ... يا ...

وصاحت أشواق :

ـ اسكتى يا شيخة . هدى تسمعك وأنت ترددين هذا الكلام الفارغ . والبنت صبية .

وأكملت دولت كأنها تصلى ولا تبالى أحدا .

ـ يا أحلاما عطرية ... يا فراشات صغيرة بنفسجية .. أليس هذا شعرا ؟

وضحكت أشواق قائلة ...

ـ أى حب تؤمنين به ؟ انك تحبين بمعدل مرة فى كل شهر .

ـ أنا ؟

واستطردت دولت وهى تمط شفتيها استنكارا للتهمة :

ـ أبدا انى أضحك من نفسى على نفسى . أنا مؤمنة به ايمانى بالله . ان سهمه لا يحول دونه الحديد والفولاذ . ليس له حل الا أمران . اما الزواج... أو الموت . وكلاهما واحد ...

وصمتت قليلا ثم صاحت وهى تنقل نظرها على المائدة :

ـ فطيرتى يا ناس . أين فطيرتى المشلتته ؟

وضحكت أشواق ساخرة :

ــ هل تظنين ان عم خليفه مسئول يوميا عن فطيرتك المثلثة ؟

ــ وهل أنا طلبتها منه ؟

ــ كلا ، ولكنك أظهرت اعجابك الشديد بفطائره يوم أن كنا مدعوين عنده ، والرجل والى ارسال الفطيرة لك أسبوعا كاملا . أما يكفيك أسبوع ؟ ولم تجب دولت كأنما كانت تتوقع أن يواصل الرجل هديته .

وقالت سميرة :

ــ لا تزعلى يا دولت وحياتك سنصنع لك أحلى من فطائر عم خليفة .

ودخل مدحت ملقيا تحية الصباح وقالت سميرة :

ــ تأخرت يا مدحت . فتحت عليك الباب فوجدتك نائما . فلم أشأ أن أقلقك .

قال مدحت وهو يأخذ مكانه من المقعد المجاور لها :

ــ نمت متأخرا .

ونظرت سميرة الى عينيه وهى تصب له اللبن :

ــ هل كنت تشعر بألم ؟

وصمت قليلا ثم أجاب :

ــ لا . كنت أقرأ .

وضحكت سميرة وهى تنظر الى ضيفتيها مزهوة :

ــ مدحت يقرأ كثيرا كتب الأدب . كان الأولى بك يا مدحت أن تدرس الآداب .

ــ هكذا أراد أبى رحمه الله كان يريدنى قاضيا . فأدخلنى الحقوق .

قالت سميرة ضاحكة :

ــ وحسنا فعل . رحمه الله . له دين علىَّ . لأنك لو لم تكن محاميا لما تقابلنا بسبب القضية وما تزوجنا ...

واصفر لون مدحت ونظر الى هدى خلسة وكأنما ينظر الى نجمة ندية ذات نور هادىء يشبه السراج فى أفق لياه . وأحس بفيض من الحزن يثقل قلبه وكأن شيئا ناعما حنونا يريد أن يموت فيه ...

وصاحت دولت وهى تنظر الى باب الصالة :

ــ سامى حضر . تعال يا سامى . أين فطيرتى المشلتتة ؟

وتلفت سامى وراءه ثم اقترب وهو يلقى تحية الصباح :

ــ آتية ورائى مع درويش .

وأخرجت دولت لسانها لأشواق

ــ ألم أقل لك . فطيرتى آتية .

ووضع درويش الصينية الكبيرة فوق المائدة وعليها ست فطائر .

وقالت سميرة ضاحكة :

ــ اجلس يا سامى وافطر معنا .

ثم نظرت الى دولت مداعبة :

ــ كلنا سنأكل مثلك الفطير ....

وسألت أشواق وهى منهمكة فى الأكل :

ـ أين تذهبون اليوم ؟ ما هو برنامجنا ؟

وقطع مدحت صمته متجها بنظراته الى الضيفتين :

ـ أنتما لم تريا سوهاج . ما رأيكما اذا قضينا اليوم بأكمله فى المدينة .
وعند المساء ندخل السينما .

وصاحتا :

ـ موافقون . كويس جدا .

وقال سامى فى تأدب :

ـ نسيتم انكم مدعوون لتناول الغداء اليوم عند الشيخ على العمدة ؟

وفرحت دولت :

ـ صحيح . صحيح . لقد دعانا الرجل أول من أمس عند زيارته لنا .

قالت سـميرة :

ـ اذن اتفقنا بعد الافطار تتهيأ للخروج . هل تصحبنا يا سامى ؟

ـ بكل سرور .

ـ اذن . هيا . اسرعوا .أليس كذلك يا مدحت ؟

قال مدحت ضاحكا :

ـ واجب علينا طبعا زيارة العمدة ما دام ينتظرنا .

ثم نادى :

ـ القهوة يا دادة نعيمه ..

الفصل العشرون

ومرت ثلاثة أسابيع كان القصر فيهـا يبدو كأنه فندق مزدحم بالسياح ••• فقد مر سكانه بكل مكان قريب أو بعيد ومشوا فوق كل شبر مأول وغير مأهول وزاروا سوهاج عدة مرات وسافروا الى الاقصر وطافوا بمعابد الكرنك وعبروا الضفة الغربية لرؤية الآثار الفرعونية وشاءت أشواق أن تزور سيدى عبد الرحيم القناوى وتقرأ الفاتحة هناك لينجح ابنها ميمى فى الملحق • فأمضوا يومين فى قنا •

وعندما فرغوا من القيام بالزيارات الواجبة بدأت الحياة اليومية تأخذ طريقها الطبيعى وعادت أشواق الى حنينها المشتعل لرؤية ولديها وزوجها وأمها وراحت تعد الأيام الباقية على انتهاء الشهر بصـبر نافذ • أما دولت فكانت لا تزال تلف كالنحلة غير متعبة ولا ملول تغنى فى أنحاء السراية • بصوتها الجهورى الخشن وتعبر الحـديقة الى بيت عم خليفة عشرات المرات فى اليوم الواحد وتتعلم كيف تخبز العيش الشمسى والبتاو وتمتطى الركوبة مع سامى الى القرية المجاورة لتقضى اليوم عند شيخ البلد وزوجته والشيخ على العمدة • أو عند الست خديجة كانت دولت مستعدة أن تأتى أى شىء ما عدا النوم • مالئة أنحاء الضيعة صخبا ولهوا وهى تقول لكل من يلقاها :

ــ ألست أعقلكم جميعا • اننى أستمتع بأجازتى •••

أما سميرة فقد بدت أكثر كآبة وشرودا وبدأت تميل الى الاستقرار والهدوء وشحب وجهها أكثر من ذى قبل وازدادت ضـعفا كأن هناك عاملا خفيا يضـنيها غير كثرة الخروج والارهاق • لم يكن قـد حدث بينها وبين مدحت أى خلاف بالقـاهرة •••

شاءت سميرة طيلة فترة زواجها أن ترى الدنيا بعين جديدة وأن تعبر الأرض الموعودة • ورأت الناس يمدحونها ويتملقونها ويحتفون بها فاندمجت وعاشـت عمرها كله فى هـذه الفترة القصيرة •• كان هـذا فعلا قـد حطم من حيويتها الناضرة • بينما كان مدحت يزداد شـبابا وصحة • وكان هناك شىء آخر أقسى

وأمر .... كان مدحت قد ظل فعلا طيلة هذه الشهور مخلصا وفيا محبا لها يخرج معها بعد انتهاء عمله ويعمل على ارضائها .

ولكن ... كيف تحدد ما كانت تحس به ؛ انها خارقة الذكاء ... مرهفة الحس ..

لم يعد مدحت مهما يصنع يحمل لها نفس الحب الأول .

كل ما كان يراه فيها حبيبا أصبح عاديا ومألوفا بل كان أحيانا باردا وفاترا وبغير اكتراث ولا مبالاة وان كان يحاول جهده اخفاء هذا الشعور ولهذا فكرت سميرة فى السفر الى العزبة لعل الجو الجديد يعود به الى حالته الأولى . ولكنه فى العزبة ازداد تحولا عنها وازدادت مشاعره انطفاء وخمولا وتجمدا ...

ولم يكن مدحت سعيدا بهذا الشعور . بل كان أشد عذابا من سميرة كان يحمل قلبا عجوزا أو ميتا فى جسد فتى وسليم . كان يتألم .. وكان يتألم أكثر فى محاولة اخفاء هذا الألم .

كان يعيش فى شعور الزاهد فى الحياة كأنه ناسك فى صومعة أو مصل فى محراب . يضحك طول اليوم ولكن يحس بالضحكات فى قلبه وكأنها تنهدات تمزقه ويحس البسمات على شفتيه وكأنها دموع تنحدر ... فاذا جن الليل . جلس وحيدا فى شرفة حجرته المطلة على الحديقة .. والحقول المترامية أمامه .. يفكر . أهى نجوى أم دعاء .. أم هو خليط من الاثنين كان يمارسه هذا الانسان الحائر تحت قدمى الغيب ؟

كان مدحت يعيش مأساة رهيبة . فى حالة نفسية مريرة ...

كان يفكر فى حياته الزوجية بالقاهرة شريطا يمر من بدايته ... لقد نجح هناك فى تخدير نفسه واخفاء غلطته بين مناهج السهرات التى كان يقضيها مع زوجته ومعارفهما متنقلين بين المسارح والملاهى والزيارات أو فى انجاز قضاياه . أما هنا

وفى هذه القرية ... ووسط هذا الليل الوسنان ، والسكون الشامل ، فلا شيء يشغل عينيه وفكره .. لا شيء أمامه غير الفضاء الواسع وأسراب النخيل الباسقة وأوراقه الخضراء المتأرجحة بين أكف النسيم كأنها خصلات شعر غانية معلوبة . ثم .. لا شيء غير الأفكار السود .. تملأ رأسه المثقل ..

كان يحس بحزن عميق كلما عاد الى نفسه فى المساء ، وبحزن أعمق كلما تذكر أن له زوجة تحبه حب العبادة تنتظره فى حجرة بالقصر على أمل ضائع ... ومن ثم يمر خيال أمامه خيال هدى بقامتها المتكبرة .

فيثور فى عنف عليها أحيانا كأنه زوبعة جوفاء تتخبط فوق جدران هـذا الجبل ثم يهدأ فى حنين ودعة كأنه سهل منبسط متواضع أخضر تحت أقدامه ..

ان هدى تبغضه .. انه يعرف ذلك ، وهى لا تخفى هذا البغض ...

انها كثيرا ما تتحاشى لقاءه ، وهى دائما تتحاشى نظراته ..

ويحدق مدحت فى دخان السيجارة الذى يتلوى أمامه ويتساءل :

ـ لماذا ؟ لماذا لم يلفت نظره جمال هذه الفتاة الصغيرة عندما كان يسهر كل ليلة عند أمها فى شقة المنيل ؟ لماذا لم يعجب الا بأمها ؟ أى تغيير كان سيطرأ على حياته لو أنه تزوج هدى بدلا من هـذه السيدة المريضة ، ان هدى كانت ستشاركه نفس خطاه الفتية فى طريق الحياة والآن انتهى كل شيء ، انتهى ، لقد مر مدحت أمام السعادة الهادئة ولم يعرها التفاتا ...

أحب الجمال من أجل الجمال ، جمال الجسد ، فكان أن تجرع لذته المسمومة ... لقد بحث عن الحب كما يبحث المراهق المجنون ، ولم يبحث عن « الحب » كما يبحث المثقف المتزن فضاع .. ويا له من ضياع ضياع لا علاج له ، ولا فكاك منه .

الفصل الواحد والعشرون

فى صباح السابع والعشرين من الشهر بدأ القصر فى هرج ومرج كان الجميع يتحدثون عن تأميم القنال الذى أعلنه الرئيس جمال عبد الناصر بالأمس . وبدأت هتافات الفلاحين من كبار وصغار ومن رجال ونساء تتردد أصداؤها عالية مدوية فى جنبات الضيعة الصغيرة وأرجائها ونسى كل فرد آلامه وأحزانه فى غمار هذا الحدث الكبير .

وكان الراديو يذيع أناشيده الوطنية والمثيرة ..

وأمرت سميرة أبا درويش الغفير أن يشترى الشربات من بلدة أخميم ويفرقها على الفلاحين والأنفار .

ولأول مرة بدأ مدحت ذلك الشاب الهادىء الذى كثيرا ما قالت له زوجته أنه كان ينبغى أن يكون شاعرا . بدأ يتكلم ويتكلم بغير انقطاع وفى حماس وثورة واندفاع . تكلم عن بلده . عن مصر . عن الثورة الفتية البيضاء . عن القائد العظيم . عن الشرف ، عن الوطنية ، عن الحرية والفداء . وعن النصر والمستقبل .

ولأول مرة فى حياتها بكت دولت فرحة وغبطة وهناءة .. ولأول مرة قبلت سميرة زوجها زهوا أمام عيون ابنتها هدى ولأول مرة أيضا أصغت هدى الى مدحت فى تلهف وانبهار وحدقت فى عينيه بجرأة وامعان وثبات ... وعندما هبطت الشمس فوق الأشجار . خيل الى سكان هذه العزبة الصغيرة أن مياه الترعة صارت أكثر عذوبة وأنها تجرى نحو المجهول فى اقتحام وعناد .

ونامت العــزبة النائية فى أقصى الصعيد . العــزبة ذات الأرض المصرية الخضراء . نامت ... ترعاها الأنجم الحارسة . وترعش قلبها أنفاس الليل الرقيقة، ويتدفق فى ضلوعها الحانية نهــر من الحب دافئا كالنسيم .. مترقرقا فى سهولة وانطــلاق .

نامت القرية الصغيرة مشدودة الى عملاق أسمر ..

وفى كل قلب باقة من الأنجم الفضية ...

وأما دولت فقد نسيت فى هذا اليوم بالذات أن تأكل فطيرتها المثلثة

الفصل الثانى والعشرون

وبدت دولت فى اليومين الأخيرين السابقين للسفر هادئة رزينة ، مفكرة ساردة وسألتها سميرة أخيرا ...

ـ أين لك كل هذا العقل يا دولت ؟

وأجابت دولت وهى تتنهد :

ـ يبدل الله من حال الى حال .

قالت شوق مداعبة :

ـ لعلك ندمت على رفضك الزواج من الشيخ على العمدة ؟

ـ أنا لا أندم مطلقا على شيء فعلته بمحض ارادتى .

ـ أنت مخطئة يا دولت . الشيخ على رجل ثرى ، هو معجب بك كثيرا .

قالت سميرة ضاحكة :

ـ أعجب بسمنتها وبياضها . انها لا تصلح الا لعمده . هل هى مخطئة اذ رفضت ؟

ـ قد أخطىء ولكنى لا أسرق . ان أولاده الخمسة أحق بثروته منى .

ـ ولكن زوجته مريضة ..

ـ ألا يكفى أن تكون قدماها مشلولتين حتى أشل قلبها هو الآخر ؟

قالت أشواق :

ـ ولماذا كنت تداومين على زيارته فى المدة الأخيرة ؟

ـ لتطمئن زوجته وتتأكد من كذب اشاعة زواجى منه .

وقالت سميرة :

— غريب أمرك يا دولت • انك حقيقة تخالفين مظهرك• كنت أظنك متهورة• وضحكت دولت لاول مرة فى يوميها الأخيرين وهزت رأسها تؤيد رأى سميرة :

— بل انى متهورة أكثر من اللازم • أتذكر أن يوم أن قلت لكما يخيل الى أنى أنتظر شيئا لم يأت بعد ؟

قالت سميرة :

— نعم • أذكر هذه العبارة جيدا •• قلتها فى ليلة الاستقبال فى بيتى قبل زواجى •

وقالت دولت :

— ليلتها سألنى الأستاذ منير وماذا أنت صانعة بهذا الشىء اذا أتى فأجبته: لست أدرى • انى مستعدة لكل الأخطاء •

قالت سميرة :

— هل تعنين ؟

وقاطعتها دولت :

— أعنى أن هذا الشىء المنتظر قد أتى فعلا • لا تسألانى ما هو ••أنا نفسى لم أعرف الا منذ قليل• ومع ذلك سأقوله لكما وأمرى لله •• انه الحب• وصاحت سميرة وأشواق فى نفس الوقت •

— ثانى ؟

واستنكرت دولت صيحتهما :

— وهل أحببت قبل ذلك ؟ ان الحب حدثان متناقضان • والتناقض بينهما هو الذى يولد الحب ••• والحدثان ضياع ووجود • كنت ضائعة فوجدت طريقى

يعنى أحببت .. كان ظهرى يؤلمنى فوجدت الجدار الحديدى الذى أستند اليـه يعنى أحببت .

وقالت أشواق وهى تضحك :

ــ قبل كل هذه الفلسفة . من هــذا الذى أحببته ؟ وكيف يوجد حبيب وسط هذه العزبة الكئيبة ؟ هذا هو المهم .

وابتسمت دولت :

ــ لن أذكر لكما اسمه .

قالت أشواق :

ــ اذن صفيه لنــا على الأقل .

ــ يا ماكرة .. انه لا يوصف وصفا ماديا .. لم أحب فى هذه المرة عينين ولا شفتين .. لم أحب شعرا غزيرا .. أو قواما ممشوقا .. أو صدرا عريضا ..

ــ اذن ماذا أحببت فيه .. ؟

ــ أحببت فى صدره المغلق صندوقا مليئا بكنوز الحب ترقد فيــه الكنوز حزينة مدفونة . وصممت على فتحه على رءوس الأشهاد لتتوهج الكنوز فى ضوء الشمس وأنا ساجدة أمام هذا التوهج أتعبد له كما يفعل المؤمن ..

قالت ســميرة :

ــ يعنى لو تركنا خيالك اللطيف . نستطيع أن تقول انك أحببت فيه حنانه ووفاءه مثلا ؟

وهزت دولت كتفيها وقالت :

ــ والله لست أدرى . أحببته كله هكذا . معجونا بالسمن البلدى ومقرصا ومخبوزا كفطيرته المثلثة .

وصاحت أشواق .

ــ يا خيبتك . عم خليفة ؟

قالت دولت فى زهو :

ــ هو عم خليفة .. هو بعينه .. بلاسته وجلبابه . وطيبته ورجولته .. وسمرته ومروءته .. وقبل هذا كله . بقلبه الأبيض الناصع .. ما الذى قلته ؟ تكلمى يا سميرة .

وأطرقت سميرة رأسها مفكرة ثم قالت جادة :

ــ والله أحسنت يا دولت . أنت سيدة عظيمة . دعينى أقبلك . كم أنا سعيدة .

قالت شوق وقد بدا عليها أنها فكرت واقتنعت وتريد أن تتراجع .

ولكن .. من منكما يترك بلده وعمله يا دولت ؟

وقالت دولت فى غير تردد :

ــ أنا بالطبع . ان الزوجة يجب أن تعيش أينما كان الزوج .. ثم انى أحببت هذه الأرض . أحببت الريف . كنت دائما حائرة .. قلقة كان قلبى لا يعرف يومه من غده . كان يتطلع الى قمة جبل بعيد والى شاطىء بحر مجهول .. كان قلبى يسخر من الأماكن والأزمنة .. ويتستر تحت ضباب ضحكات تعسه .

ــ وهل تطيقين حياة الريف بعد أن تعودت على القاهرة ؟

ــ ان حرارة الصيف فى القاهرة الزاخرة تفتح جراحى الخافية .. أما هنا فانظرى يا شوق .. ان الأغصان كالمراوح تنعش القلوب التى تيبست وتعيد لها الحياة والكبرياء .. كنت أحلم بالتوغل فى أعماق الظلال والأشجار وبالنوم فى ظلهن الأبدى ... وسوف أنام هنا الى الأبد ...

قالت سـميرة :

ــ ووظيفتك يا دولت ؟

ــ اتفقنا أنا وخليفه على أن أستقيل • وسأضم معاشى الى مرتبه •

قالت سميرة فى حنان ورقة :

ــ وسأعمل من جهتى على زيادة مرتبه •

وشكرتها دولت بينما سألت أشواق :

ــ اذن • لن تعودى معى مساء الغد •• ؟

ــ سأعود طبعا لأرتب أمورى كلها وسيأتى خليفه ليصحبنى الى هنا فى أول سبتمبر •

وبكت سميرة وأشواق فرحا لسعادة دولت وحزنا على فراق صديقة حبيبة •

الفصل الثالث والعشرون

عندما سافرت الضيفتان ران على القصر صمت موحش •

وبدا لسكانه وكأنه غرق فى فراغ كبير ••• وساور القلق هـدى من ذلك الهدوء المخيف بعد تلك الضجة التى كانت تزعجها فى البداية ثم لم تلبث أن اعتادت عليها وأحبتها •

وطاف الثلاثة فى أنحاء السراية الكبيرة ضائعين يبحثون عن أنفسهم كأحياء فوق جزيرة نائية مهجورة •

وبدأ سامى فى تسلم عمله الجديد فى أخميم ليعود كل أصيل مرهق القوى متعبا • فالتصقت هدى بأمها أكثر من ذى قبل •

أما مدحت فكان جسدا بلا روح • كانت تصرفاته نحو هدى لم تتغير منذ حضوره الى العزبة • لم يكن يترك فرصة للتردد اليها الا وانتهزها على غير جدوى •• وظل يعاملها كأخ كبير يحنو على أخته برغم كل ما يلقاه منها من جفاء ظاهر •

وقالت لها أمها ذات يوم :

ــ انك لا تبادلين مدحت حنانه نحوك • ما زالت حاقدة عليه • يا هدى ؟

وأجابتها معترضة :

ــ ابدا يا ماما •

ــ لاتنكرى • أنت كبرت ياهدى • يجب أن تفهمى أن كل شىء انتهى••• قولى • لماذا تحقدين عليه •• وهو طيب معك •• ؟

قالت هدى فى نبرة أسف :

ــ هو طيب فعلا •

وبدأت هدى تعامل مدحت برقة مراعاة لشعور أمها ... وذات مساء اقترب مدحت منها وهى جالسة وحدها فى حجرة الجلوس ترسم .

ــ هدى . ماذا تعملين ؟

وارتعشت ..

ــ أرسم بيت عمى خليفة .

وتأمل الصورة مليا ثم قال :

ــ انك ذات موهبة أصيلة . عندما ترجعين معنا لابد لك من مدرس خاص للرسـم .

وقطبت جبينها وقالت فى سخرية :

ــ لا أظن أنى سأتعلم . لأنى لن أسافر معكما الى القاهرة . واقترب منها أكثر ومد يده فجذب يدها من فوق المنضدة ... وحاولت أن تستردها فتشبث بها وانحنى على وجهها يهمس فى بطء وحزن وأنفاسه تكاد تحترق .

ــ لمـاذا أنت قاسية ؟ ماذا صنعت لك ؟

وأحست بضيق واختناق . ولم تجب . فترك يدها يائسا وأعطاها ظهره وخرج .

وهكذا كان مدحت لا يكاد يرى الطريق الذى يسـير فيه أو يحسب له أى حساب . كان يمضى الى الهاوية متخيلا أن ما يحمله نحو هدى ما هو الا حنان أخوة جارف ...

كانت النار تسرى فى عروقه دفينة مكتومة ...

ولو قال له أحـد : أنت تبث القـلق فى قلب صـبية بريئـة لأنكر الأمر واستبشعه ...

الفصل الرابع والعشرون

وذات أصيل عاد الثلاثة من نزهة طويلة فى أحضان الحقول الندية وأضفت الحرارة على وجه سميرة لونا ورديا جميلا فقال مدحت :

ــ انك عدت الى نضارتك يا سميرة :

وانشرح صــدر سميرة ولكنها شعرت بتعب شــديد صباح اليوم التالى ولزمت الفراش ••

ومضت ثلاثة أيام وقالت سميرة :

ــ اخرجى أنت يا هدى مع مدحت • انكما تشعران بملل وكآبة ••

واعترضت هدى على هذا الاقتراح • ولم تفلح أمها فى اقناعها •• أما مدحت فلم ينطق ببنت شفه •

وبدا مدحت أقل اهتماما بهدى وارتاحت هدى لهذا التصرف وبدأت هى الأخرى من ناحيتها تحدثه بحرية أكثر ولم تعــد تتلقاه بذلك الوجه الصــارم الجامد •••

وعندما كانت السهرات تطول • كان مدحت يحاول أن يعلم هدى « البنج بنج » بينما تتمدد سميرة على مقعدها الطويل تتبعها بنظراتها فى غبطة وراحة •

ومضى أسبوع طويل وتحسن الجو على خلاف عادته فى شــهر أغسطس • وبدأت الحرارة تقل وقالت سميرة ذات صباح وهى ترى على مدحت علائم الكآبة والملل •

ــ مدحت • ان الأنفار بدأوا فى جنى القطن • انه منظر جميل • ألا تحب أن تراه ؟ قال فى بساطة وعدم مبالاة :

ــ اذا أحببت •

— يا ليت . ما زلت تعبة يا مدحت . ما ذنبك أنت كى تسجن معى هنا . لقد أو شكنا على السفر .

ونظرت الى ابنتها فى توسل :

— هيا يا هدى . هيا يا حبيبتى . اذهبا الى حقل القطن . عم خليفه سيفرح بكما . ان الجو جميل .

ولم تعترض هدى ولأول مرة خرجت وحيدة مع مدحت .

— ———

الفصل الخامس والعشرون

أبدا لم يكتمل جمال الطبيعة كما اكتمل فى هذا الصباح الضاحى .. كانت هدى ترتدى ثوبا من البيكة البيضاء ، واسع الذيل ليغطى ساقيها كعادتها كلما خرجت ممتطية حمارتها عزيزة ، ولم تكن تكشف عن ذراعيها مراعاة لتقاليد القرية ، وكانت تلف شعرها الأسود الغزير كحاجبيها تحت ايشارب من الحرير الأزرق المشجر وتنتعل خفا من الكاوتش الأبيض ... كانت تبدو كزنبقة فى معبد الطبيعة المقدس رواها الفجر من دموعه النقية ، ففاض سحرها حنانا ينساب فوق الحقول الخضراء وفى أعماق الأرض .. ورف كالعطر على كل عود أخضر .

كانت مشرقة ناضرة .. تمشى أمام الغدران فيخيل لمن يراها أنها تهمس وأمام الزرع فيخيل لمن يراه أنه يشرئب ، وكأن العصافير تشدو والبراعم تتفتح ، أو كأنها شعاع هارب من أشعة الشمس المظلة ، أما هو فكان غريبا .. يرنو أمامه بقلب كئيب ، ويطوى مسافات الطريق الطويل فى ضيق وكأنه فى سراويب مظلمة، ومن حين الى حين يبتسم الى اللاشىء كأنما يستمد من هذه الابتسامة أمنا وقوة وطمأنينة ..

مشيا فوق حماريهما صامتين منعزلين عن العالم الا من فلاح يقود بهيمته أو فلاحة تحمل الى زوجها « مشنة » الغداء من خبز وجبن ... واستوحشت هدى هذا الصمت المقلق والتفتت الى مدحت :

ــ مالك يا أستاذ مدحت ؟

ــ ونظر اليها أخيرا كأنما يفيق من حلم بعيد وقال :

ــ الحر شديد .

وفك زرار قميصه وأخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة وأخذ نفسا وأعاد العلبة الى جيبه وتذكر سميرة ، لو كانت معه لقدم اليها سيجارة .. انها تدخن

بنهم مثله اما هذه الصغيرة فلم تعرف طعمه بعد ... وبدأ يحس بدهشة أنه يسير مع هدى . هدى ابنة سميرة . كيف حدث ذلك ؟

ومرت نسمة ندية وقطعت هدى تفكيره :

ـ الجو لا بأس به .

وقال دون أن يدرى ما يقول :

ـ اقتربنا أظن ؟

ـ نعم . بعد خمس دقائق على الأكثر نصل الى الكوبرى .

وســأل :

ـ وهل حقل القطن بعيد عن الكوبرى ؟

ـ خمس دقائق أخرى على القدمين . وسنربط الركائب فى جذع الشجرة . شجرة الجميز هناك . الا اذا آثرت العودة .

وأسرع يقول :

ـ كلا سنأخذ هدنة عند الكوبرى . الجو هناك جميل .

ـ لأن الشجرة تظلله وماء الترعة يرطبه ...

وردد كأنما يحدث نفسه .

ـ نعم ان الشجرة تظلله .

وعاد الى الصمت .

واقترب منهما فلاح وحيته هدى ببشاشة ورد التحية فى احترام ولكن فى ألم وتوجع ...

ـ مالك يا عم جمعه . تركت الشغل ليه ؟

ـ تعبان يا ست . استأذنت من عم خليفه علشان أروح ..

قالت ضاحكة :

ـ خذ اجازه بكره . ماتخافش . حسابك ماشى .

واكملا السير ودعوات العجوز تلاحقها وقال مدحت

ـ مساكين . كلهم مساكين . انهم يتعبون .

ـ ان حب الأرض فى دمائهم . وهذا هو عزاؤهم .

قال معترضا :

ـ نحن تعبنا من الحر ونحن راكبـون . فما بالهم هم وهم يكافحـون فى الأرض ؟

قالت :

ـ هم لا يخافون البرد ولا الحر . وقل أن يصابوا بامراضهما .

ووقفت عزيزة فلكزتها هدى بقدميها فى حنان قائلة :

ـ مالك اليوم ياعزيزه ؟ ... أنت لست طبيعية .

وتبسم مدحت وقال :

ـ تعبت هى الأخرى .

ـ انها جائعة .. . أو ظامئه .

وربتت على عنقها واتحنت على اذنها الطويلة تقول فى مرح الطفلة :

ــ ستأكلين وتشربين عندما نصل الى الكوبرى .

ثم التفت اليه

ــ ان الحيوان اذا جاع يتمرد .

وقال مدحت :

ــ والفلاح محروم من أشياء كثيرة .

قالت وفى نبراتها ما يشبه السخرية :

ــ أى أشياء « المارون جلاسيه » عندكم فى القاهرة ؟ المهم الشهية والمعدة السليمة . انهم يأكلون هنا ما خلقه الله وليس ما يصنعه البشر .. يأكلون أشياء طازجة ليست مغشوشة ...

وضحك مدحت .

ــ كم تدافعين عن القرية :

قالت بايمان :

ــ لانى أحبها وسأعيش دائما فيها . ان الأرض طيبة .

وقال كأنما يضيق من شىء :

ــ ولكن صمت الريف يبعث على التفكير .. والتفكير متعب ..

ولماذا لا تفكر فى الأرض بالذات ؟ فيما تعطيه لنا وما ينبغى علينا ان تعطيه لها .

وتوقفت عزيزة مرة أخرى فلكزتها بقدميها وهى تقول :

ـ اقتربنا ياعزيزه ...

ثم التفتت الى مدحت :

ـ تصور . انى أحس أن الأرض صديقة حميمة تعرف عنى وأعرف عنها كل شىء .

وأشار الى الفضاء . الى الشمس الساطعة العارية . فقال مبتسما :

ـ ولم لا ؟ ان الصداقة كالضياء . بريئة لاتخفى شيئا ...

أجابت مصدقة على كلامه :

ـ لذلك هى عطاء وأخذ .

واقترب بركوبته منها وقال فى عطف :

ـ ولماذا لاتبادليننى نفس هذه الصداقة ياهدى .. ؟

ولم تجب

وبدأ الكوبرى يبين . ولم يبق بينهما وبينه غير عشرة أمتار على الأكثر . وكانت هدى قد سبقته فأسرع مدحت بحمارته حتى يلحق بها وفجأة جرلت عزيزة ورفعت قائميها الأماميين فى عصبية واندفعت لا تلوى على شىء . وصرخت هدى وهى ترى الترعة القريبة . واختل توازنها فسقطت على الأرض .

وقفز مدحت وراءها وارتمى عليها يحتضنها وبغير أن يشعر تفجر حبه .. تفجر كل حبه نحو هدى رهيبا جارفا ...

نظر اليها فى جنون . نظر اليها متمتما بكلمات غير مفهومة . نظر اليها كأنها تمثال قدسى يخشى أن يلمس وتحركت هى وتأكد أنها لم تصب بأذى فنسى

كل شيء . الزمان .. والمكان . لم يعد يذكر الا أن هدى معبودته بين ذراعيه . شبابها البكر . صباها الناضج . شعرها المنساب الطويل المتموج ملء عينيه وبين راحتيه . شعرها الذى يملأ الحقول والأرض بالرائحة الطيبة المسكية وهو يضمها فى جنون ولهفة وارتشف قبلة ...

وفتحت هدى عينيها .. وفهمت كل شيء .

فأزاحته عنها بقوة . وهبت ثائرة كالمجنونة . وهم أن يلحق بها فصرخت فيه :

ــ ابتعد ..

قال فى ضراعة وخجل :

ــ هدى أرجوك افهمينى .

قالت فى تحد وكبرياء :

ــ خطوة واحدة منك وألقى بنفسى فى هذه الترعة

وتسمر مشدوها وهى فى طريق العودة على قدميها ..

وامتطى مدحت حمارته وتبعها عن بعد

والتقت بسامى عند حافة الحقل . قال :

ــ هدى . أين كنت ؟ رجعت اليوم مبكرا . قال لى درويش انك ذهبت الى حقل القطن مع الأستاذ مدحت ..

وتبسمت فى هدوء :

ــ كلا . لم نستطيع أن نذهب . حرنت عزيزه وألقتنى على الأرض .

وســأل منزعجا :

وهل أصبت بأذى ؟

ـــ كلا . لا تنزعج

ثم التفتت وراءها قائلــة :

ـــ ها هى عزيزة راجعة . لقد ندمت .

ـــ اركبى اذن وسأتبعك ماشيا حتى لاتعيد عزيزة الكرة .

وضحكت هدى قائلة :

ـــ كانت متعبة ياسامى . ليس الذنب ذنبها . انها طيبة .

ومر الى جوارها مدحت محييا سامى ثم سبقهما الى السراية .. واستقبلتهما امها فى الفراندة بخوف وقلق . وطمأنتها هدى ثم دخلت حجرتها لتسترد نفسها الضــائعة .

لم تذكر هدى انها بكت يوما فى حياتها مثلما بكت فى هذا اليوم ... كل احساس اخفته عن أمها وعن سامى انفجر وانهار فى هذه اللحظة ... انها ضعيفة .. ضعيفة .. ان نظرات مدحت وهو يضمها اليه مازالت تتحدى نظراتها حتى الآن .. ان قبلته مازالت تحرق شفتيها . ان صوتا فى أعماق أعماقها يناديها . حقيرة .. حقيرة ... ومشت فى حجرتها كالمجنونة عبثا تحاول أن تبحث عن مخرج ... لم يزل أمامها أسبوع على بقاء أمها ومدحت .. كيف اذن تبتعد عنه طوال هذه الفترة الباقية .. كيف تتحاشى الخطر ؟

وحان وقت الغداء .. وكان لابد لها ان تتماسك أمام نظرات أمها الثاقبة .

وجلس الثلاثة ... ولم يتكلم مدحت كعادته . لم يحاول ان تقع عيناه على عيني هدى . ظل صامتا يتظاهر بالاشتغال في تناول طعامه وداعبته سميره .. حاولت أن تخرجه عن صمته .. وكان يجيبها مراوغا ..

ثم أنهى مدحت الطعام وعاد الى حجرته ...

عاد مثقلا بالهموم . كأنه يحمل على كتفيه أعباء العالم كله .. وكان حقا يحملها ... ففى هذا اليوم . هذا اليوم فقط فهم نفسه انكشف عنها القناع الذى طالما حاول تجاهله . تحدد شعوره نحو هدى . أنه يحبها . يحبها حبافوق العبادة .

يحب ابنة زوجته . ياللعار .. مدحت ابن رضوان افندى توفيق الرجل الطيب .. الرجل الصالح . مدحت الشاب الذى سار على هدى والده . امينا نزيها .. أحس بالخزى من نفسه . أحس بالغضب على نفسه . وراح يلعنها . يلعن نفسه الموبوءة ويلصق بها كل صفات الخيانة .. كان نادما على ما صنعه ولكن فى نشوة عارمة ... كان ثائرا على شعوره ولكن فى حنين مستبد . يريد أن يركع ذليلا طالبا العفو والمغفرة من الأم ومن الأبنة ...

ومرت الأيام ولم تعد هدى تظهر فى القصر الا وقت النوم . كانت تقضى طيلة نهارها تقريبا عند عم خليفه أو تركب الى القرية عند عمتها . وبدأ يظهر عليها النحول والضعف . وشحب وجهها وبدأت سميره تقلق . ماذا حدث بين مدحت وبين هدى ؟ لقد مرت عليهما فترة من الزمن كانا كصديقين متآلفين . انهما الآن يهربان . كل منهما يهرب من الآخر . كلا . ان هدى هى التى تحاول الهروب من مدحت . انها لا تكاد تلقى عليه التحية اذا التقت به فى انحاء السراية . وكثيرا ما كانت تسألها سميرة عن سبب هذا التغير فلا تجد عندها جوابا مقنعا .

وحزنت سميرة . كانت طامعة فى أن تمنح هدى أخا كبيرا يحنو عليها ويعطف كانت تود أن يستقر الوئام بينهما أخيرا ...

أما مدحت فكان يبدو حزينا يائسا وعبثا حاولت سميرة أن تعمل على ادخال السرور الى قلبه . عبثا حاولت أن تدفعه الى الخروج والتنزه ، عبثا حاولت أن تبعث البسمة الى شفتيه . ولما كانت تسأله عن السبب فى حزنه كان يرده مرة الى السعال الخفيف الطارىء الذي أصابه منذ أيام . ومرة الى رطوبة تسللت ومرة الى صداع أمس يلازمه .وكانت سميرة مهيأة لأن تصدق كل ما يقوله مدحت .

وراحت تكرس كل وقتها للعمل على راحته والتعجيل بشفائه .

الفصل السادس والعشرون

جاء اليوم الثانى والعشرون من شهر أغسطس وكان يوما شديد الحرارة خانق الأنفاس .. وسبحت العزبة الصغيرة فى الرطوبة وحط على أهلها خمول وكسل وكأنما أراد الصـيف العجوز أن يباشر فى أواخر أيامه مهام وظيفته بأمانة ودقة . وأن يؤدى فى ذلك اليوم بالذات رسالته كاملة . وكفت الاغصان النائمة عن همسها الأبدى . وفوق جدران الأفق الأزرق التمعت الشمس وانسابت خيوطها كالسيوف المشرعة .

وعلى مائدة الطعام قالت سميرة وهى تهم بالوقوف :

ـ الحمد لله . لقد شبعت . عن اذنك يامدحت وأنت ياهدى فى ذلك الجو الحار لابد لنا أن نتمدد بعد الغداء .

ثم ابتعدت

وهمت هدى بالوقوف لتتصرف قبل أن ينفرد بها مدحت ولكنه اقترب منها ووضع يده فوق كتفها قائلا :

ـ اجلسى ياهدى . لى معك حديث قصير . أرجو أن تستمعى له .. قالت فى ذهول لا يخلو من تحد .

ـ وان لم استمع ؟

واجاب جـادا :

ـ تأتين أمـرا سيئا للغـاية .

قالت فى قسـوة :

ـ ماذا تريد ؟

أجاب فى رجاء رقـيق :

ـ لاشىء غير عفـوك

ـ كلا • مطلقـا •

وصمت مدحت قليـلا ثم خفض رأسه حزينا

ـ الى هذا الحد تبغضيننى ؟

وحولت رأسها عنه حتى لا يرى فى عينيها مالا تحمله شفتاها وقالت

ـ ألم تحمل لنا القلق والحزن ؟ كانت ماما سعيدة قبل أن تعرفك وصمتت برهـة ثم استطردت :

ـ وأنا الأخرى •• لقد سممت حياتى •• ليتك ترحل •

وشحب وجهه حتى حاكى الموتى

ـ ألا انتظر منك شعورا أقل حقدا ؟

انى أتعذب ياهدى • انك لا تعرفين أى حب أحمله لك •• كـلا انه ليس حبا •• انه على التحـديد عبادة وتقديس ••

وأمسكت بظهر المقعد لتجنب نفسها السقوط • ومشت الرعدة فى كيانهـا واستمدت من اللـه القـوة •••

ـ ابدا لـن أسامحك ••

وتمتم فى أسـف ••

ـ انت مخطئة • انى شـقى •• اننى مذنب انه شىء فوق احتمـالى •• واستردت السيادة على نفسها وقالت فى عنف ••

لم أعد أريد أن أراك . خذ ماما وسافر .. ارحل .. ارحل . ونظر اليها في الم وخشـوع وابتعد قائلا :

ـ أمـرك ... سأرحل

ثم دخـل حجرته

وعندما خرج مدحت من حجرته في المسـاء كان بشوشا مرحا يملؤه أرجاء السراية صفيرا وغناء وضحكا .

وقالت سميرة وهي جالسة الى جواره في الشرفة ونور القمر ينسج لهما من خيوطه مظلة فضية :

ـ كم أنا سعيدة بمرحك الليلة يا مدحت .

قال ضاحكا :

لكل شيء في الوجود نهاية . لقد عدت الى نفسي .

ـ كيف ؟ حدثني .

ـ ان النحلة تلف لتعود الى خليتها ... والفراش يطير ليعود الى زهرته هذا ما رأيته هنا في عزبتكم ..

قالت في غبطة :

ـ أريدك هكذا متفائلا دائما .

ثم تنهدت .

ـ مدحت . أمازلت تحبني .. ؟

وأراد أن يتهرب من الجواب فاقترب منها بمقعده .

ـ انك أجمل وأخلص زوجة فى العالم . ولكن لماذا هذا السؤال ؟

ـ لأن هناك أشياء كثيرة طالما عكرت صفو حياتى .

ـ لأن عقلك يحب أن يستمتع بشطحاته .

قالت :

ـ معك حق ... دائما يمتزج عندى شعور الأمل بالخوف لاأدرى السبب.

ـ ليتك تعيشين كدولت . أن صديقتك تأخذ الحياة كما هى . لذا تخضع لهـا الحياة .

ـ ذكرتنى بدولت . نحن لم نرسل لها ولا لأشواق ردا على خطابيهما منذ سافرتا .. ما أكسلنا ؟

وصمت يفكر ثم قال :

ـ غدا ستكتبين اليهما حتما .

قالت مندهشة :

ـ ولماذا حتما ؟ ولماذا غدا ؟

وتنبسه للعبارة فاستدرك قائلا :

ـ أعنى من الواجب المحتوم أن تكتبى اليهما وفى أقرب فرصة .

ـ بالعكس . أرى أننا أوشكنا على العودة الى القاهرة . فلا لزوم للكتابة

وسعل مدحت وسألته منزعجة :

ـ ما زلت تسعل يا مدحت هل تداوم على تناول دوائك ؟

قال ضاحكا :

ــ أداوم على تناوله كل ليلة حتى كدت أخطئ وأشرب سم الفيران .

صاحت :

ــ ويحى . كيف حدث ذلك ؟

ــ كان ذلك منذ يومين على ما أظن . ان زجاجة السعال وزجاجة سم الفئران متشابهتان لونا وحجما .

ــ ولماذا لم تخبرنى بهذا الحادث ؟

وهز كتفيه .

ــ كان من التفاهة بحيث لم أخبرك .

ــ تفاهة ... أمرك غريب . لابد لى اذن أن أحمل زجاجة سم الفئران الى مكان آخر بعيد عن متناول يدك . ذكرنى يا مدحت الليلة قبل أن تنام .

قال فى اندفاع :

ــ لا تخافى مطلقا . سأغير مكانها أنا .

وعاد يقول وهو ينظر حواليه :

ــ أى فرق بين هــذا الليل وليل القاهرة .. أتعلمين ياسميرة أنى أتخيل أحيانا أن الليل هنا رداء كثيف أو غطاء ثقيل . يحمل لنا النوم فى طياته ...

وأمسكت بيده فى حنان .

ــ عندما نعود الى القــاهرة . لن نخرج كثيرا يا مدحت . أصبحت أحب الهدوء . أحب أن نعيش وحدنا أطول وقت ممكن .

وتمتم مدحت :

ــ سأعيش الى جوارك الى الأبد

وقالت تستكمل صورة أمان حبيبة

ــ سوف نرحل الى شقتنا •• وستستقبلنا الشقة بعصا فيرها المزقزقة فى القفص الصغير • ولبلابها المتسلق جدران الشرفة ••• ستستقبلنا مزهوة بعودتنا وستفتح لنا أم محمد الخادم أبوابهـا فى شهقة فرح • وسنفسح نحن ركنا فى حجرة نومنا الزرقاء يتسع لأحلامنا التى نحملها معنا من قلب الريف الهادىء ...

وضحك مدحت قائلا :

ــ كم أنت خيالية •

وساد سكون •وتثاءب مدحت وقالت سميرة :

ــ نعست يا مدحت ؟

قال آسفا :

كنت أود أن أمكث معك هنا أطول مدة ممكنة

وضغطت على يده فى حنان

ــ كلا ياحبيبى • مادمت تريد النوم • يكفينى مانلته من السعادة هذا المساء هيا •• هيا الى النوم

الفصل السابع والعشرون

فى هذه الليلة ، عندما دقت الساعة القديمة المعلقة فوق جدار « صالة السراية » منتصف الليل ، كانت هدى ما زالت ساهرة فوق فراشها تفكر فيما قاله لها ظهر هذا اليوم وتغرق فى لجة من المشاعر الطاغية .

وعلى حين غرة ومن خلال القمر الشاحب المتسلل من زجاج الشرفة لمحت باب حجرتها ينفتح ورأت مدحت يتقدم نحو فراشها فى بطء وترنح فهبت مذعورة وقبل أن تند عنها أية صرخة وضع راحته على فمها فى رفق هامسا فى ضراعة :

— هدى لا تصرخى ، ستفتضح ، جئت استغفرك وأودعك للمرة الأخيرة انى راحل .. لقد وضعت حدا لحياتى .. الوداع ...

وبغير أن ينتظر جوابا اتجه الى الباب وخرج .

كم من الوقت ظلت هدى ساهمة مشدوهة واجمة لا تتحرك ....

انها لا تدرى ولم تستطع بعد ذلك أبدا أن تدرى .

كانت هناك أصداء كثيرة تتزاحم وتدوى داخل رأسها ، أصداء تترامى الى هـذا الرأس .. من داخل النفس .. من كل ركن فى أقصى الأرض ومن أنحاء القصر .. من قلب حجرتها كلها أصداء تصرخ عاصفة ، مدحت انتحر مدحت انتحر .

ومنذ هذه اللحظة لم تعد هى هدى ، هدى الفتاة العاقلة الشامخة كالجبل . كانت هناك فتاة أخرى جديدة انسانة خرجت من أعماقها تهيب بها أن تتحرك . أن تطير ، أن تفعل المستحيل .

أسرعت مهرولة فى قميص نومها الحريرى وقدميها العاريتين وشعرها الثائر لتلحق بمدحت .

ولأول مرة منذ أن وطىء مدحت بقدميه أرض هذه « السراية » دخلت هدى حجرة نومه ...

كان مستلقيا على فراشه يتلوى من الألم فى أنين مكتوم ويكل حبها العذرى الساذج المكبوت انفجرت باكية وهى ترتمى عليه فى لوعة وأسى وجنون .

ــ مدحت . مدحت . ماذا صنعت بنفسك ؟

قال فى حنان وهو يتلقفها فى أحضانه :

ــ قلت لى اليوم أنى سممت حياتك . فشربت أنا الآخر السم .

قالت من خلال نشيجها المتواصل .

ــ كيف هانت عليك نفسك يا مدحت ؟ كيف ؟ كيف ؟

أجاب فى حزن وقد امتزجت دموعه بدموعها .

ــ لأنك أبغضتنى .

وانهارت فوقه وهزت كتفيه ناسية آلامه .

ــ أيها الأحمق كيف ؟ انى أحبك . أحبك . أحبك ...

ورف فى قلب هذا الانسان الساجى على فراش الموت روح من الهناء البكر لم يشعر به من قبل وغمغم :

ــ لو لم أمت الا لكى أسمع منك هذه الكلمة لكفى . ليس المهم أن أعيش سعيدا .. انما الأهم أن أموت سعيدا ...

وصرخت هدى :

ــ ومن قال لك أنك ستموت . كلا . أبدا . أقول لك أبدا . لن تموت . لن يرضى الله . لن أرضى أنا . لن ترضى أنت .

وتبسم فى حزن •

ــ ومع ذلك • انها الحقيقة •

وصرخت فى لهفة وحرقة •

ــ أبدا • سأوقظ أهل البيت • سأوقظ ماما • سأوقظ عم خليفة سأوقظ العزبة كلها • وسنستدعى الطبيب من أخميم • لابد • لابد • اتركنى • وجذبها اليه بشدة •

ــ لن تفعلى ذلك • أقول لك لن تفعلى ذلك • سترتاب أمك فى الأمر •

ــ سأقول انى سمعتك تصرخ فذهبت اليها لايقاظها •

وتبسم فى مرارة ويأس •

ــ لا تحاولى • لا فائدة • ستمر ساعتان حتى يأتى الطبيب من المركز • ولن يجد فى حياة ستعذبين أمك فى لحظاتى الأخيرة • دعيها تحتفظ لى بذكرى حبى لها حتى تكرمنى فى موتى كما أكرمتنى فى حياتى • لقد شربت سما رهيبا • سم الفئران ياهدى • انه سم يكفى لقتل عشرة فى أقصر وقت واستطرد وهو يلهث •

ــ شربته منذ ساعتين • لم يعد أمامى الا ربع ساعة على الأكثر •• أمكثيها معى امنحينى هذه اللحظة الأخيرة من الهناء • لا أريد أن أغمض عينى الا على محياك •

وارتمت الى جواره منهارة وهى تخبط بيدها على السرير •

ــ لماذا صنعت ذلك ؟ لماذا ؟

ــ كان لابد أن يبتعد واحد منا نحن الثلاثة الى الأبد • وكان على أن أكون ذلك الواحد •

ــ اغفرلى يا مدحت •

وقال فى حنان :

ـ حيث يكون الحب تكون المغفرة •

واشتد عليه الألم وتلوى جسده فى تشنج ونظرت اليه وقد جحظت عيناها رعبا وصرخت صرخة مكتومة كأنها صدى قلب جريح •

ـ لا يامدحت لا أصدق أنك ستموت • أقول لا يمكن أن تموت • سأصرخ سأملأ الدنيا صراخاً وعويلا • دعنى أوقظ ماما ••••

ورفع رأسه عن صدرها ونظر اليها فى عتاب ••

ـ هدى ألا تحبين أن أموت بعيدا • ان أمك ستعتقد أنى أخطأت فى شرب الدواء • أفهمتها الليلة أنى كدت أقع فى هــذا الخطأ منذ ليلتين وقد صدقتنى • انتهى الأمر • أؤكد لك أنى أموت •••

وبكت فى ألم وهى تقطع شعرها المتهدل وتردد نفس السؤال :

ـ لم فعلت هذا يا مدحت ؟

وأجابها وأنفاسه تتلاحق فى طريقها المحتوم :

ـ عندما غضبت على • ضــاقت الدنيا بى •فأحببت أن أتلمس رحابا أوسع •

سمنى ما شئت • قد أكون جبانا • لكننى لم أطق ••• تسرب الحزن الى قلبى فأذاه فى مأتم • وعندما اتخذت قرار الموت أحسست راحة غريبة وخفــة وانطلاقا • ولاحظت أمك ذلك •••

وصمت قليلا :

ــ مسكينة أمك . ظلمتهـا معى . تعذبت فترة هـذين الشهرين . عزائى الوحيد أنى أسعدتها هذه الليلة . اذا كانت الكلمات تسعد .. وأسندت رأسها على وسادته وأسبلت عينيها فى صمت مطبق رهيب ... واستطرد وهو يئن :

ــ تكلمى . تكلمى يا هدى .

قالت :

ــ منذ عامين . عندما فهمت الحياة .. وجدتك أمامى . وبغير أن أعرف أصبحت أملى فى غضبى عليك وفى هدوئى أمامك . فى قربى منك وفى بعـدى عندك هربت منك انى هنا مكرهه ... كرهتك مكرهه ... فى أول الأمر ظننته نفورا ما أحس به نحوك فى القاهرة .. ظننته غضبا عندما ابتعدت عنك وجئت هنا ظننتها اهانة عندما ضممتنى اليك تحت شجرة الجميز . كان هذا هو الحب .

وتركها تتكلم وحدق فى فناء الحجرة يضرع الى الله فى صمت أن يباركهـا وأن يغفر له ما أقدم عليه من خطيئة الانتحار ... ثم غمغم .

ــ ألى هذا الحد ؟ ما أشد غبائى . انه قدرى .

واستطردت :

ــ لمـاذا تزوجت أمى ؟ لمـاذا ؟ انها هى التى أغرتك . هى . انى أكرهها . أكرهها . لمـاذا تزوجت بشاب يصغرها ؟ لمـاذا ؟

ودافع عنها فى صدق

ــ لا تقولى ذلك أبدا لم نكن قط مذنبة . انها مسكينة .

وأرهقه الكلام وأحست بجسده يوشك أن ينخذل .

ثم تمتم فى ضعف :

ـ وجدت فيها ملاذا من انواء الاضطراب والقلق ... ولكن حبها لم يغش فى كيانى . كان انتفاضة سريعة من انتفاضات القلب ..

وأخذ نفسه بصعوبة ثم استطرد فى حنان أ

ـ أما أنت .. فقد تسلل حبك الى قلبى شيئا فشيئا .. دخل كيانى كأنه عنصر غائب عاد الى . أصبحت تعيشين فى . وأخيرا .. طويت جناحى عليك ..

وأغمض مدحت عينيه وارتجف بدنه .

صاحت :

ـ مدحت . مدحت .

وفتح عينيه بقوة وراح يهذى .

ـ نعم يا .. زوجتى .. أين ابننا مدحت ؟ .. أين ؟ هل هو يلعب فى الحديقة ؟ دعيه .. لا تقلقيه .. ما أجمل الأطفال .. انها كائنات صغيرة فى جمال الورود .. ووداعة العصافير .. ان الأبوة جميلة جميلة ...

وبكت هدى فى حرارة وألم واستطرد :

ـ لا تنسى أمى . أستحلفك بالله .. واسيها .. انها هى وحدها الضحية .. ضحية مجهولة .. ضحية منسية ...

ونزلت من عينيه دمعة حائرة متجمدة .

ثم أغمض مدحت عينيه .. ونام الى الأبد .

الفصل الثامن والعشرون

هتفت سميرة وهى واقفه فى صالة القصر تهدهد بين ذراعيها فى لهفة وحنان طفلا وديعا بديعا فى جمال الملائكة :

ــ هدى ... هدى .. أين أنت ؟ مدحت جوعان ، يبكى .

ووثبت هدى درجات السلم السبع ضاحكة :

ــ دعيه يبكى قليلا .. ياماما ...

وقطبت سميرة جبينها غاضبة وهى تناولها الطفل .

ــ ما أشد قسوتك ياهدى .. الا تعلمين أنه قد حان موعد رضاعته؟وجلست هدى على أول مقعد صادفها ضاحكة ملء قلبها وأخذت ترضعه وهى تقبل جبينه قائلة :

ــ ياسلام ياماما .. قلت لك مرارا لن يحدث شىء اذا بكى قليلا ... أن بكاء الطفل يقوى رئتيه ... أنت تحبينه .. أكثر مما يجب ..

ورفعت سميره خصلة من شعرها الابيض الناصع كان الطفل قد شدها اليه وهو فى ثورة بكائه قائلة .

ــ كيف أستطيع احتمال بكائه : وجلست أمام ابنتها تتأمل هذا المنظر البديع الجميل ، منظر أم ترضع ابنها ...

وسكتت لحظة ثم سألت :

ــ أين كنت ؟ ماذا تصنعين أنت وأبوه فى الحديقة ؟ وكفت هدى عن الابتسام فجأة وأصابها شىء من الوجوم وهى تقول :

ــ سامى يقطف الزهور ، وأنا أعمل البوكيهات ..

ثم استطردت وهى تنظر فى ارتباك الى عينى أمها الذابلتين ..

ــ أنسيت ياماما ؟ اليوم الذكرى السنوية لمدحت الكبير ...

وهزت سميرة رأسها وهى تقول فى عتاب .

ــ كيف أنسى ياهدى ؟

وسكتت هدى . وطواها تأمل عميق . وخفضت عينيها حتى لا ترى سميره دمعة كبيرة تجمدت فى كل عين وغمغمت :

ــ ثلاث سنوات مرت على وفاته .. كم يخدعنا الزمن ونهضت أمها قلقة وهى تنظر الى ساعة الحــائط .

ــ الساعة العاشرة . حان الوقت ــ لزيارته ..

وجاءها صوت دولت الاجش العــالى من الحديقة

ــ هيا ياجماعة .. الركائب جاهزة ..

قالت سميره فى استسلام :

ــ هيــا

وحمل سامى ابنه وهو يتبعهن نحو بوابة السراي سائلا زوجة أبيه

ــ أين الوالد ياست دولت ؟

ــ سبقنا ياحبيبى من بدرى

ونظرت الى هدى مندهشــة

ــ تأخذين ابنك معك يا هدى ؟

قالت هدى فى اندفاع وهى تتلقف ابنها من بين أحضان أبيه كأنما تخشى أن ينتزعه أحد منها :

ـ بالطبع . سآخذه معى .

وابتسمت سميره فى مرارة . بينما الركائب تمشى فى هدوء وبطء

ـ نعم لابد أن نأخذه معنا . فى العام الماضى .. لم يكن الطفل قد ولد

قالت دولت :

ـ على كل حال . الجو هناك جميل تحت شجرة الجميز ..

واقترب سامى من زوجته مؤيدا كلام زوجة أبيه

ـ نعم . ان الشجرة تظلل المكان .

ونظرت اليه هدى فى حنان وعطف وافتر ثغرها عن ابتسامة رضاء واضطربت شفتاها وارتعش جسدها وقالت كأنها تحلم

ـ نعم .. ان الشجرة تظلل المكان .. لابد لنا من شىء يبسط ظله علينا .. لابد .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٠/٥٢٨٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٠٠٠-١٩٨٠-٨٦٤٤

جمهورية مصر العربية

مطبوعات
المجلس الأعلى للثقافة

– ٢٤٣ –

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م


Bibliotheca Alexandrina
0506938